محمـــد تميـــــم

شبح العالم الثالث

التعليم من أجل التنمية

ترجمة: عبد العزيز زيوان

♦اقرأ♦

♦ إقرأ أول كلمة نزلها الله سبحانه و تعالى على خاتم الانبياء النبي محمد صلى الله عليه و سلم ♦

♦اقرأ بسم ربك الذي خلق Ω خلق الإنسان من علق Ω إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم Ω علم الإنسان ما لم يعلم ♦

صدق الله العظيم

تـــوطئـــة

ما المقصود بالعالم الثالث؟

متى وأين بدأ ؟ وإلى أين سينتهي؟

هل من الضرورة الملحة استثمار الرساميل الهائلة وتجنيد جيوش من الخبراء ال
ف ي ت عم يم الـ ترب ية الـ وط ن ية من أجل الخروج من دائرة التخلف؟

هل التكاثر السكاني سبب من أسباب وجوده؟

وهل التقدم الطبي (اختفاء عدد كبير من الأمراض، حملات التلقيح...) من أسباب التكاثر السكاني؟

هل دور سـ يا سات الـ ت نظ يم الـ عائ لي مهم ف ي ت عم يم الـ ترب ية الـ وط ن ية ؟ كيف يمكن للتربية أن تلعب دورا حاسما في تنمية بلدان العالم الثالث ؟

هل لعبت الرؤية الماركسية للتربية دورا ما في فشل المجتمع الشيوعي؟

كيف تمكنت دول كاليابان وتايوان وإسرائيل، وهي عبارة عن جزيرات، وقاية نفسها شر الانتساب إلى العالم الثالث؟ ما هو العبء الذي تتحمله منظمة الأمم المتحدة، مع فجر القرن الواحد والعشرين، لمواجهة هذه المشكلة العويصة؟

أسئلة كثيرة تحتاج إلى أجوبة تلقي بعض الضوء على ظاهرة العالم الثالث.

من وجهة نظرنا، نعتقد أن عملا حيويا ينتظر الإنسانية، ويتلخص في إعادة هيكلة المنظمة الدولية وفي استعداد الجميع لشن حرب كونية على الجهل والنمو السكاني.

أخيرا، نذكر القراء الأعزاء بأن دراستنا ليست سوى محاولة متواضعة لإثارة النقاش حول هذه الظاهرة المعروفة والمؤسفة التي تسمى العالم الثالث.

« إن الإيمان الذي يعتبر ضرورة ملحة لتحقيق التوازن المفقود في علاقتنا بالأرض يتجلى في ثقتنا بالمستقبل (...) إن كوكبنا يجتاز مرحلة صعبة للغاية »

آل غور ، نائب الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون
صاحب الكتاب المشهور **حتى ننقذ كوكب الأرض** ،
البيئة والفكر البشري 1992.

مقـدمــة

نشرنا عام 1979 في برلين دراسة باللغة الألمانية صادرة عن دار النشر *Hoering Verlag* تحت عنوان **شبح العالم الثالث,**عند بداية العام 2002 أعدنا نشر هذه الدراسة بدار النشر الباريسية ***L'Harmattan*** بعدما قمنا بتنقيحنا وترجمتها للفرنسية. ختمنا البحث بجملة مختصرة تلخص قناعاتنا حول الإشكالية المطروحة :

« تجد البشرية نفسها اليوم وعلى الرغم من تقدمها الباهر في شتى المجالات في مفترق الطرق إما أن تتكتل وتتضامن وإما أن تحتضر فتموت »

على البشرية إذن أن تواجه بشجاعة كل تلك الجحافل البشرية الآتية من العالم الثالث والتي تهدد باجتياح العالم لصناعي محدثة فوضى عارمة وأزمات مختلفة. إن جول الجنوب التي تكابد الفقر وتعاني الانفجار السكاني تعتقد أن الغرب المتقدم هو سبب ما تقاسيه من آفات، لذا فهي لا تتوانى في صب جام غضبها وسخطها عليه. على البلدان الصناعية إذن التضامن حتى لا يتخذ شبح العالم الثالث أبعادا مأساوية و حتى لا تتمكن أياد آثمة من صنع أسلحة دمار شامل في غفلة عن أعين المراقبين والخبراء. يجب على البشرية إذن أن تتكتل حتى لا تبقى سماء دول الجنوب ملبدة بالغازات السامة المنبعثة من مصانع دول الشمال الثرية.

يجتاز العالم في الوقت الراهن مرحلة حساسة من تاريخه حيث تتوالى الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والأمنية و تتعاقب المأزق النفطية وتنذر الظروف الحالية باندلاع نزاعات إقليمية و دولية لن تعرف طريقها إلى الحلحلة إلا بتوافر النوايا الحسنة لدى شعوب الأرض.

علينا من الآن التفكير في خلق كيان عالمي ذي سلطة عليا يتمتع بقدر كبير من النزاهة والمصداقية والحزم. قد يظن بعض المتشائمين أن مثل هذا المشروع ضرب من أحلام اليقظة، لكن ما العيب في أن يحلم المرء بغد أفضل مادام الحلم حقا مشروعا ؟ المهم أن يكون الإنسان إيجابيا ويسعى لما فيه مصلحة وخير بني جلدته. كم من مشروع أصبح حقيقة بعدما كان مجرد فكرة صغيرة !

على الساسة وصناع القرار منذ الآن التفكير في تجنيب كوكبنا كارثة بيئية حقيقية. فالمخاوف البيئة أصبحت شبحا مرعبا يقض مضجع كل الخبراء. لقد فطن ماركس وأنجلز منذ بداية القرن التاسع عشر في **بيان الحزب الشيوعي** على أن شبح الشيوعية يتهدد العالم، باختفائه ظهر شبح آخر هو شبح المد البيئي.

نشير إلى أن دراستنا مقسمة إلى ثلاثة أجزاء :

I. شبح العـالم الثـالـث

2. شبـح العالم الصناعي
3. شبـح المـد البيئـي

تسعى هذه الدراسة إلى إيجاد صيغة توفيقية بين أنموذج المجتمع التقليدي في دول الجنوب والأنموذج الصناعي الليبرالي في دول الشمال، لأن الأنموذج الأول مفكك البنى ويفتقر إلى إستراتيجية محكمة من شأنها أن تكفيه شر الانفجار الديمغرافي والفوضى والحروب والمجاعة أما الأنموذج الثاني وعلى الرغم من جاذبيته فقد اتخذ أبعادا مخيفة قياسـا لما أفرزه من نتائج بيئية واقتصادية و ديمغرافية و اجتماعية كارثية.

سنحاول إذن في القسم الأول الذي يحمل عنوان **شبح العالم الثالث** إبراز الآليـات التي جعلت من دول الجنوب بلدانـا متخلفة. أما في الجزء الثاني **شبح العالم الصناعي** فسوف نسلط الأضواء على العوامل المتداخلة التي جعلت دول الشمال تقف في مصاف الدول المتقدمة. أما في الجزء الثالث والأخير فسوف نناقش خطر المخاوف البيئية التي غدت من أكثر المواضيع إثارة للجدل في السنوات الأخيرة.

تمهيد

هذا البحث ليس موجها لثلة من المتخصصين، إنه تحليل مبسط لظاهرة العالم الثالث موجه لعموم القراء. يضم هذا الكتاب تصميما يفسر تشكل العالم الثالث ويقترح حلولا يتطلب تحقيقها تعبئة كل بلدان العالم ووضع خطط بالغة التعقيد، وكذا توفير وسائل مادية وبشرية هائلة.

لم تستأثر ظاهرة قط، خلال القرن العشرين، بكل ذلك الزخم من النظريات والمؤلفات، كما كان الحال بالنسبة لظاهرة العالم الثالث التي تتخذ اليوم أبعادا مخيفة.

وتجدر الإشارة إلى أننا لم ندرج في هذه الدراسة أي ملاحظة هامشية رغبة منا في تيسير القراءة لكننا، بالمقابل، احتفظنا بأسماء الكتاب الذين تمت مناقشة أفكارهم وأطروحاتهم، لأننا نعتبر هذا المؤلف رؤية مختلفة للعالم الثالث، نوجه من خلالها النداء لكل من يهمه الأمر من أجل الإسراع بالعمل.

لقد كتبنا أهم فقرات الكتاب **بحروف بارزة** حتى يتسنى للقارئ المستعجل فهم محتواه في وقت وجيز.

و ننصح القارئ الكريم بأن لا يأخذ الإحصائيات المعتمدة بشكل حرفي، لأن اهتمامنا كان منصبا بالأساس على إبراز التوجهات التي اتخذها تطور البلدان المذكورة على سبيل المثال.

وبما أن دراستنا أنجزت في الثمانينيات من القرن الماضي، فإن هناك كتبا ظهرت فيما بعد، ومن الطبيعي أن تكون التواريخ متجاوزة، لذا حاولنا تحيينها من أجل مقارنة تغيرات التوجهات والتأكد من مدى دقة دراستنا.

وأخيرا، قدمنا ببليوغرافيا تحتوي على كل المؤلفين والمؤلفات التي تمت الإشارة إليها في هذا البحث.

الجزء الأول

شبح العالم الثالث

الفقرة الأولى : أصل العالم الثالث:

ما المقصود بالعالم الثالث ؟

تقول Barbara Veit، في كتابها **لماذا العالم الثالث ؟**، نقلا عن دراسة قامت بها منظمة اليونيسف، في سويسرا عام 1990، إن 90 بالمائة من الأطفال المستجوبين يربطون العالم الثالث بالفقر، والانفجار السكاني والمجاعة... بينما يرى فيه 0,7 بالمائة فقط شيئا من الجمال والبساطة والفرح.

يرى Bernard Chantebout في مؤلفه **العالم الثالث** أن دار النشر L'Harmattan نشرت عام 1981 ببليوغرافيا حول العالم الثلث تضم حوالي 1943 عنوانا.إذا كانت هذه الكتابات الهائلة حول الظاهرة - والتي تضاعفت اليوم الملايين حسب Google- لم تترك في أذهان الأطفال سوى انطباعا عابرا من الفاقة والانفجار السكاني، فإن هذا مرده إلى الخبراء أنفسهم، الذين اعتمدوا معايير الفقر والانفجار السكاني، التي تفتقر إلى الدقة في تقييم الانتساب إلى العالم الثالث (استهلاك حراري لا يتعدى 2500 سعرة في اليوم/استهلاك طاقي لا يتعدى 600 كلغ/دخل فردي ضعيف في السنة/نمو سكاني مهول/تغطية صحية دون المستوى...) كل هذه المعايير لا توضح بجلاء التفكك البنيوي العميق الذي تكابده دول العالم الثالث، بل يكتفي بإعطاء أرقام حول درجات الفقر.

هل كانت مظاهر التفكك "و العالمثالثية" (Tiermondisation)، التي أوضحناها على شكل معايير للتنمية، موجودة في بريطانيا خلال بداية القرن التاسع عشر؟ سنحاول أن نبين أن هذه المظاهر لم تكن فحسب موجودة ولكن أسبابها انتشرت في عموم الكرة الأرضية عن طريق انجلترا وأوروبا.

أ- بريطانيا العظمى خلال القرن التاسع عشر :الصورة القديمة لعالم معاصر:

لقد أودعنا تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر انطباعا من الفقر الخانق. كثيرة هي الأقلام التي تناولت ظاهرة الفقر المدقع الذي عانى منه السكان. أما مشاهير الكتاب فقد خلفوا للأجيال اللاحقة شهادات مؤثرة حول البؤس الشديد الذي قاسته شعوب أوروبا.

من منا لم يتأثر بأحداث **قصةالصغير اوليفر تويست** للكاتب البريطاني Charles Dickens.لنعد قراءة الرواية لنكتشف من جديد بريطانيا التي يصفها الروائي : ألم تكن عالما ثالثا ؟

ثم لنعاود قراءة **الحانة** لـ *Emile ZOLA* و **البؤساء** لـ *Victor HUGO* **و جريمة وعقاب** لـ *DOSTOÏEVSKI*. لنتأمل قليلا رسومات *Honoré DAUMIER*، و **أكواخ لندن** لـ *Gustave DOURY*، ألم يكن ذلك كله عالما ثالثا؟

إن التاريخ الذي ألهم بمآسيه العديد من الفنانين الأوروبيين في القرن التاسع عشر يعيد نفسه اليوم بإلحاح في بلدان الجنوب.

إذا كانت الكتب والأعمال الفنية التي تناولت ظاهرة الفقر في أوروبا خلال القرن التاسع عشر غير محدودة، فإننا سنقتصر على بلد واحد هو بريطانيا لأنه كان منطلق "الشر". وسنكتفي بكتاب **أوضاع الطبقة العاملة في انجلترا** لـ Frederick ENGELS، لأنه يبين بوضوح مختلف ملامح مقاربتنا حول أصل العالم الثالث.

لا يتعلق الأمر بمقارنة القارة الأوروبية التي كانت قوية خلال القرن التاسع عشر بالقارة الإفريقية التي تقف اليوم على شفا الدمار، ولكن نتوخى البحث في طبيعة الظاهرة نفسها التي بدأت في انجلترا ووصلت إلى إفريقيا حيث اتخذت أبعادا أكثر مأساوية لأسباب سنعرض لها فيما بعد. وتهدف أيضا إلى استنباط الآليات التي جعلت أوروبا تتطور من المرحلة "العالمثالثية" إلى مرحلة التصنيع؟

يصف Engels في كتابه **أوضاع الطبقة العاملة في انجلترا** حياة العمال في لندن وكأنه يصف الحياة في أية مدينة كبيرة من بلدان العالم الثالث اليوم، فهو بذلك يطلعنا على أن الظاهرة **"العالمثالثية"**، ظاهرة كونية. و من خلال هذا المؤلف يبدو أن الشعوب تتفاعل بشكل متشابه مع نفس التأثيرات التي عرفها تاريخها.

فمن الهجرة القروية إلى الهجرة إلى الخارج مرورا بالعنصرية و الانفجار السكاني والبطالة والتوسع العمراني والمساكن العشوائية والدعارة...كل هذه الموضوعات التي تشكل مظاهر الحياة في العالم الثالث المعاصر نجدها مدروسة بعناية فائقة في هذا الكتاب القيم.

¤ سرعة التغيير:

إن حدة تطور الظاهرة وسرعة انتشارها المهولة، والتي أرقت شعوب العالم بأسره، نجدها مذكورة في مقدمة الكتاب (صفحة 50) حيث نقرأ:"كانت انجلترا، منذ 60 أو 80 سنة، بلدا كسائر البلدان، بمدنها الصغيرة وصناعتها البدائية، وسكانها الريفيين المنعزلين، ولكنها الآن بلد لا مثيل له...".

¤ آفة الجوع :

منذ ذلك الحين، عرفت كل بلدان المعمور نفس المصير. يدخل انجلز في صلب الموضوع الذي يهمنا ويقول: "خلال إقامتي بانجلترا، عام 1844، كان الجوع السبب في موت عشرين أو ثلاثين شخصا في ظروف مزرية". بعد الجوع الذي تناوله الكتاب البورجوازيون بإسهاب، ينتقل انجلز للحديث عن نوعية العمارة قائلا:"الأزقة نفسها ليست مستوية ولا مرصفة، إنها متسخة ومليئة ببقايا نباتات وحيوانات، لا تتوفر على قنوات تصريف المياه،و تتخللها برك ماء راكد، تنبعث منها رائحة كريهة"

كان المواطن الانجليزي ذو الجذور الريفية غير متعود على جمع القمامة في حاويات خاصة، لذا احتفظ بعاداته القروية التي رسخت لديه سلوكا مضرا بالبيئة الحضرية. إن مثل هذا السلوك نجده اليوم مستفحلا في مجتمعات العالم الثالث حيث تنتشر على امتدادا البصر أكياس مطاطية مختلفة الأحجام والألوان. هذا مثال نموذجي عن السلوكات العالمثالثية الكثيرة التي تتطلب عشرات السنين من التربية لتجاوزها.

¤ الرداءة العمرانية :

""أما التهوية فصعبة للغاية بسبب التصميم السيئ والعشوائي للزقاق، وعلاوة على ذلك فإن الأزقة كانت تستغل لنشر الغسيل المبلل على حبال ممتدة بين الدور قصد تجفيفه عندما يكون الجو مشمسا (...). أما "سان جيل"، فهي عبارة عن مجموعة من المنازل تحتوي على ثلاث أو أربع طبقات مشيدة بدون تصميم في أزقة ضيقة وملتوية وقذرة (...). ويقام السوق في الأزقة : أكوام من الخصر والفواكه تفتقر بالطبع إلى الجودة، وتجعل المرور صعبا وتنبعث منها رائحة تخنق الأنفاس"

"والبيوت آهلة بالسكان من الطابق السفلي إلى الطابق العلوي، وهي متسخة سواء من الداخل أو الخارج (...)، والجدران متآكلة، وإطارات الأبواب – إن كانت موجودة–مصنوعة من ألواح قديمة (...) إن أغلبية أولئك الذين غرقوا في دوامة الانحطاط و يزدادون فيه انغماسا فيفقدون كل يوم القوة لمقاومة آفات الفقر والقذارة".

إن من يعرف اليوم المدن الكبيرة في العالم الثالث، سوف لن يجد نفسه مغتربا عند قراءة هذه الصفحات. و حتى تلك التفاصيل الدقيقة التي قد تبدو تافهة من حيث كونها نسبية، تكتسي

أهمية خاصة وتثير الفضول.يعبر انجلز عن ذلك قائلا: "وغالبا ما تكون مساكن الأغنياء الفارهة، مجاورة لملاجئ الفقر المدقع، وهكذا، نكتشف في الأزقة البائسة مثل Long-Arc، عددا كبيرا من المساكن في الطابق السفلي، حيث تطل عليك أطياف أطفال مرضى، ونساء يرتدين رث الثياب، يتضوعن جوعا".

يشير انجلز إلى الأب Altson، أسقف "بتنال كرين" الذي يصف حالة أسقفيته:"تضم الأسقفية 1400 منزلا، تسكنها 2795 أسرة أي ما يعادل 12000 شخصا (...) في مثل هذا التراكم البشري، كنا، في الغالب، نجد الزوج والزوجة وأربعة أو خمسة من أطفالهما، وأحيانا، الجد والجدة يقطنون غرفة واحدة مساحتها 10 إلى 12 قدما مربعا، حيث يعملون، ويأكلون وينامون".

إن عدد أفراد الأسرة الواحدة قد لا يبدو ذا قيمة، ولكنه يشبه حالة المدن الكبيرة في دول الجنوب في أيامنا هذه.

لنستمع الآن إلى Altson وهو يصف ما كان عليه المسكن في لندن:"كان المسكن، في الغالب، عبارة عن ركام من التبن القذر، ومن أغطية مصنوعة من بقايا أكياس بالية، تلف السكان جميعا، وهم يشبهون مزيجا من الكائنات أهانهم الفقر، والجهل و الانحلال (...) وفي الغالب، كانت أكثر من أسرة واحدة تقطن في الطابق السفلي، حيث يزدحم حوالي 12 إلى 16 فردا، في جو يثير الغثيان".

¤ الغش :

وقبل أن نخوض في الحالة الصحية، التي كانت تشكل مظهرا مؤلما لهذه الأزمة، التي أفرزتها الظاهرة "العالمثالثية"، والتي صاحبت مرحلة التصنيع، يخبرنا انجلز عن الغش في الصفحة 112:" كان التجار، في الغالب، يمزجون الكاكاو بالتراب البني، الدقيق والمطلى بشحم الخروف، ليسهل خلطه، فيما بعد، بالكاكاو الحقيقي, والشاي كان يخلط بأوراق شجر البرقوق (...) أما الإبزار فكان يستبدل بقشور مسحوقة..."

ليس هذا سوى فقرة مختصرة عما يضمه الكتاب حول هذه القضية، إن كل أنواع الغش التي نجدها اليوم في العالم الثالث والتي نربطها بشكل مبسط بدناءة الشعب ونلصقها بعرقه وثقافته

لا تمثل إلا مظاهر بسيطة إذا ما قورنت بما أورده انجلز في كتابه الشهير الذي يتميز بالدقة والأمانة العلميتين. كما أن الآليات التي جعلت من حالات الغش هذه شيئا مقبولا في ذلك العصر كانت محط اهتمام بالغ لدى الكاتب الألماني.

وعليه، فثمة عوامل أخرى اقتصادية واجتماعية ونفسية أفرزتها ظروف الفقر القاسية، أعطت لدراستنا المقارنة على الرغم من التفاوت الزمني بعدا أكثر إنسانية، تستشرف فيه شعوب الجنوب بصيصا من الأمل. إذا كانت الدول العظمى قد اجتازت، في وقت ما، هذه المرحلة الصعبة بنجاح، فكيف لا يتسنى ذلك للدول الفقيرة؟

¤ الوضعية الصحية :

إن الوضعية الصحية لبريطانيا، خلال القرن 19، تشبه إلى حد بعيد حالة الدول الفقيرة اليوم. لننصت لما يقوله انجلز في هذا المضمار:"إذا استحضرنا الظروف التي كان يشتغل فيها العمال وتذكرنا كيف كانت مساكنهم مكتظة بالناس وعلمنا أن المرضى والمعافين كانوا ينامون في نفس الغرفة الواحدة وعلى نفس السرير الواحد، لفهمنا لماذا كانت الحمى– وهي مرض معد – تنتشر بشكل واسع في أوساط السكان.

وإذا تذكرنا قلة الإمكانات الطبية التي كانت متاحة لعلاج المرضى لعلمنا أن الأشخاص الذين حرموا أسباب الشفاء كثر (...) والدكتور Alison الذي يعي جيدا وباء الحمى يرجع أسبابه بشكل مباشر إلى الفقر والضائقة (...) في 1840 كان متوسط العمر في "ليفربول" لا يتعدى 15 سنة، في صفوف العمال والمياومين (...) وكانت وفيات الأطفال مرعبة في أوساط الطبقة العاملة (...) وفي "مونشستر"، على سبيل المثال، كان 57% من الأطفال يموتون قبل إتمام السنة الأولى (...) وينتشر الانحلال بشكل رهيب في أزقة "دوبلان" الضيقة، وفي أحياء "كلاسكو" الفقيرة (...) وفي المراكز الحضرية، يتفشى الفساد ويجد المنحرفون ضحايا رخيصة لإشباع غرائزهم المرضية بعيدا عن بساطة الحياة الريفية".

¤ التطرف كاديولوجيا للحروب و الإرهاب :

إن الانحلال، وتجارة الانحلال وأوساطه الفقيرة تساهم إلى حد كبير في إذكاء التعصب السياسي والديني. ، يطلق Marx في كتابه الشهير **الرأسمال** صرخة صاخبة ضد انحطاط الإنسان

الذي وجد نفسه مجبرا على الدفع بأبنائه للمتاجرة بأجسادهم. إن نداء ماركس مصوغ بشكل ينم عن موهبة علمية وفلسفية كبيرتين، يحتاج إليها الغرب اليوم، لفهم الأصولية الإسلامية بدل الخوف غير المبرر منها.

في أحياء مدن العالم الثالث التي تحاكي "سان جيل"، من حيث العنف و البطالة والتهميش يشكل المسجد الملجأ الوحيد الذي يجد فيه البعض الطمأنينة والسكينة وروح الإخاء.

إن الفقر وفقدان الأمل في الحياة وتجارة الانحلال على اختلافه وامتداد مجالاته المشينة تساهم لا محالة في إذكاء روح التعصب السياسي والديني.

إن « الإرهاب الإسلامي » الذي تراه بعض الجماعات مقاومة مشروعة ضد أعدائها في الداخل أو الخارج يرتبط ارتباطا وثيقا بالمرحلة « العالمثالثية » لذا علينا أن نضعه في إطار التسلسل التاريخي حتى لا ندفع شعوب الأرض على اختلافها على الاقتتال فيما بينها.

والجدير بالذكر أن أوربا عرفت خلال القرن التاسع العشر مجازر وثورات دامية كانتفاضة باريس الشهيرة لعام 1871 بالإضافة إلى الحروب الأهلية والعالمية والثورات الشيوعية المختلفة . بانهيار المنظومة الشيوعية ظهرت عل الساحة الدولية إيديولوجيات جديدة متعددة المشارب والتوجهات. وإذا كان السودان يحوي أقوى حزب شيوعي في أفريقيا كاد يقضي على حكم جعفر النميري في أواخر السبعينات من القرن الماضي، فإن إنشاء حسن الترابي للجبهة الوطنية الإسلامية في أواخر الثمانينيات عجل بتراجع العقيدة الشيوعية خاصة مع سقوط حائط برلين. أما في أمريكا اللاتينية وأسيا فلا توال حرب العصابات سبيلا تنتهجه بعض الجماعات للضغط على الأنظمة والحكومات لانتزاع بعض المكاسب السياسية. إن النزاعات والحروب وكل أشكال التطرف الديني والسياسي وكذا الهجرة قد باتت ملاجئ آمنة يحتمي بها كل من اكتوى بجذوة الفقر المدقع في بلدان الجنوب .

في دول الجنوب، يعتبر التدين والهجرة، بما تفرزه هذه الأخيرة من عنصرية وكراهية للآخر، ملجئين آمنين لكل من يطمح إلى التخلص من الفقر المدقع.

ويستأثر هذا الموضوع المهم بانشغالات المواطن العادي، في الدول الصناعية، حتى صار ينزل بثقله على موازين الاستحقاقات الانتخابية.

أصبح العالم الثالث موضوعا ذا أهمية كبرى، من حيث كونه قوة رئيسية في توليد الهجرة وتصديرها. ما ذا كان الحال بالنسبة لانجلترا خلال ق.19؟.

¤ الـــــهجـــــرة و العنـصريــة :

يقدم انجلز في كتابه القيم إحصاءات مضبوطة ويقول :"نعتقد أن مليون أرلاندي هاجروا حتى الآن ولا زال 50.000 منهم يهاجرون سنويا، ويرتاد معظمهم المناطق الصناعية، وخاصة المدن الكبرى حيث يشكلون الطبقة الاجتماعية الأكثر بؤسا. في لندن يصل عدد هؤلاء إلى 120.000 عامل، وفي كلاسكو يوجد 40.000 فرد، وفي ليفربول 34.000، وفي مونشستر 40.000، وفي بريستول 24.000، أما في ادمبورغ فيقدر العدد بحوالي 29.000 عامل (...) ".

وهكذا فالهجرة ليست ظاهرة وليدة عصرنا بل مظهرا من المظاهر التي أشرنا إليها فيما سلف، والتي ترتبط ارتباطا عضويا بمرحلة "العالمثالثية"، المرحلة الممهدة لولوج مرحلة التصنيع.

أما فيما يخص العنصرية بما يعنيه المصطلح من كراهية الآخر فيقول انجلز، نقلا عن توماس كارليل : « كنا نرى في كل الأزقة الرئيسية والثانوية "الميليزيين (*Milésiens*) » بوجوههم القاسية التي تنم عن دهاء مشوب بالنفاق وعن نزعة شريرة، وكذا عن بؤس و حمق. كان سائق العربة الانجليزي الذي يمر بمحاداة الميليزي يهوي على هذا الأخير بالسوط فيلعنه ويشتمه ثم يمد قبعته متسولا. وعليه، كانت الذاكرة الشعبية في انجلترا تتوهم أن الميليزي يمثل شرا يجب التخلص منه. لقد كان الميليزيون بأسمالهم القذرة وضحكتهم المتوحشة مستعدين للقيام بأي عمل يتطلب قوة الساعدين و صلابة الجسم، ويمكنهم من ربح ما يشترون به البطاطس، أما الساكسونيون الذين لم يكونوا قادرين على العمل في مثل تلك الظروف فكانوا عرضة للبطالة. وهكذا استطاع الايرلندي الذي يجهل كل شيء عن التمدن أن يسلب الانجليزي مكانه، ليس عن طريق القوة العضلية ولكن لأنه يمثل الطرف النقيض (...) إن من كان ينظر إلى حالة العمال الانجليز المتدهورة، كان يفضل الانضمام إلى الأيرلنديين، الذين كانوا ينافسونهم على كل الأصعدة".

إذا كان المواطن الانجليزي ينظر إلى الأيرلندي بهذا الشكل، فإننا نتفهم، على هذا الأساس، كراهية الفرنسي للمغاربي وبغض الألماني للتركي... لكن ما مصدر هذا العنف اللفظي من قبل كاتب مثل "توماس كارليل"؟ هل كانت موجات الهجرة الأيرلندية ظاهرة جديدة على المجتمع الإنجليزي في ذلك العصر؟ بالتأكيد، فهجرة 50.000 أيرلندي في السنة في اتجاه انجلترا كان من شأنه أن يفرغ ايرلندا من سكانها. يمكننا أن نفسر ذلك بجاذبية المراكز الصناعية في بريطانيا حيث كان التدفق الجارف للهجرة يغذي التكاثر السكاني.

¤ الانفجـــــــار السكـــــانـــــــي :

يطلعنا انجلز عن ذلك قائلا : « تزايد سكان انجلترا بسرعة كبيرة، ولا يزالون في تزايد مستمر. وعلى الرغم من التقدم الصناعي المتسارع وارتفاع الطلب على اليد العاملة فإن انجلترا تعاني (على حد اعتراف الأحزاب الرسمية) من فائض في السكان(...) » .

إحصائيا، تزايد سكان انجلترا أربع مرات فقط خلال القرن 19 حيث ارتفع الرقم من 10 ملايين إلى 40 مليونا. هكذا نصل وفق تسلسل منطقي لمختلف ملامح "العالمثالثية" في انجلترا – كما نقلها كتاب انجلز– إلى التكاثر السكاني الذي نعتبره، في نظرنا، من أهم مميزات العالم الثالث.

تعد الهجرة نتيجة مباشرة للتكاثر السكاني، و يعتبر تاريخ البشرية تاريخ هجرات الشعوب من مناطق إلى أخرى، هجرات اتسمت بالعنف تارة وبالسلام تارة أخرى. لكن منذ القرن الأخير، اتخذت ظاهرة الهجرة في أوروبا أبعادا مخيفة، لذا نستشعر القلق ونتكهن بتشكل سور حديدي خفي بين كل من الشمال والجنوب.

شهدت القارة الأمريكية، في القرن الماضي وخلال فترة وجيزة تدفق أفواج كبيرة من المهاجرين. من إيطاليا فقط كان ينطلق سنويا، على حد قولGaston Bouthoul" حوالي 900.000 مهاجر قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى. ويقدر عالم الاجتماع الفرنسي الهجرة الأوروبية إلى القارة الجديدة بأربعين مليون مهاجر خلال القرن 19. و كانت أرقام النمو السكاني الذي يغذي هذه الهجرة المكثفة ذات دلالة عميقة. فخلال القرن 19، انتقلت ساكنة أوروبا من 180 مليون إلى 400 مليون نسمة، وبعدها إلى 500 مليون عام 1930. أما ساكنة فرنسا، على سبيل المثال، فقد تضاعفت لتصل 40 مليونا، بينما انتقلت ساكنة ألمانيا من 30 إلى 50 مليون نسمة. من جهة، ارتفعت ساكنة روسيا إلى 60 مليونا بعد أن كانت لا تتجاوز ثلاثين مليون نسمة.

ما هي إذن أسباب هذا الانفجار السكاني الذي انطلق من انجلترا في القرن التاسع عشر لينتشر عبر العالم بسرعة مذهلة محدثا تضاعفا سكانيا مرعبا ألهم العديد من الكتاب والمخرجين السينمائيين؟

¤ أسبـــــاب الانفـــجـــار السكـــانـــــــي :

يجب البحث عن هذه الأسباب في الاكتشافات المهمة في عالم الطب. البعض يعزو هذه الأسباب إلى عوامل اقتصادية. هذا صحيح، فالقدامى يخبروننا عن العلاقة بين سنوات الازدهار وارتفاع الزيجات والولادات والتي كان ينجم عنها نمو سكاني، سرعان ما يتوقف بسبب الأوبئة الدورية.

إن الربط بين ارتفاع السكان وتحقيق الرفاهية، كان مقبولا في القرن 19، لأن الساكنة في أوروبا كانت تنمو بموازاة مع التقدم التقني وارتفاع الإنتاج. و النمو السكاني لم يكن نتيجة حتمية لاغتناء المجتمع، ولكنه نتيجة منطقية لتطور الطب. إذ كانت التنمية الصناعية قد ساهمت، إلى حد ما، في تقدم الطب، فإن هذا الأخير أقل أهمية، في دول الجنوب، لأنه أفرز تكاثرا سكانيا دون أن يحقق الثروة.

ب - شـــبـــح الانفـجـــار السكـــانـــي :

على المستوى التاريخي، وبشكل عام، تزايدت الساكنة البشرية منذ آلاف السنين بشكل بطيء ولكن بموازاة التطورات التقنية والاجتماعية.

منذ القرن التاسع عشر كان كل شيء يسير وفق إيقاع سريع. لذا كانت الحضارة الصناعية تتطور بسرعة مذهلة. ولم يكد حلم السفر إلى القمر يختمر في الأذهان حتى وجد الإنسان نفسه على سطح هذا الكوكب ولم يكد العلماء يفكرون في صنع القنبلة الذرية حتى ألفوا أنفسهم أمام ترسانة هائلة من الأسلحة تستطيع أن تدمير العالم بكامله، بل لم يكد الإنسان ينشغل بالظاهرة السكانية حتى صارت الأرض تعج بالملايير من البشر من مختلف الأشكال والألوان.

يرى عالم الديمغرافيا Alfred Sauvy في كتابه **السكان** أن ساكنة العالم كانت تقدر بمليون نسمة منذ 10 آلاف سنة قبل الميلاد، وبحوالي 340 مليون منذ ألف سنة قبل الميلاد، وبحوالي 545 مليون نسمة سنة 1650 بعد الميلاد، ثم انتقل العدد إلى 728 مليون في منتصف القرن الثامن عشر، وبعده 907 مليون نسمة سنة 1850. و في عام 1900، كان عدد سكان المعمور يقدرون بحوالي 1620 مليونا، انتقل بعد ذلك عام 1950 إلى 2476 مليون، وسنة 1961 إلى 3100 مليون نسمة، تزايد ليصل سنة 1983 إلى 4672 مليونا. وبعد مرور ثلاث سنوات بلغت ساكنة الأرض 4883 مليون نسمة. و هكذا نلاحظ أن سرعة العصر الصناعي تبعث على القلق خاصة فيما يتصل بالتزايد المهول للسكان.

لنقم الآن بمقارنة بعض الأرقام، حتى نفهم مضمونها وجدواها: لقد ارتفعت ساكنة العالم بحوالي 200 مليون ساكن بين عام 1000 قبل الميلاد وعام 1650 بعده أي خلال ما يقارب 3000 سنة، في حين تزايدت ساكنة الأرض بنفس الكمية بين سنتي 1983 و 1986 أي خلال ثلاث سنوات فقط.

يرى J.C Chesnais في كتابه الديمغرافيا، أن كلمة« ديمغرافيا ' (Démographie) » لم توظف بشكل واع إلا في عام 1909، من طرف Adolphe Landry، وأنه من المرجح أن تكون الحركة السكانية قد تميزت بارتفاع في الولادات والوفيات ثم بانخفاضهما بعد ذلك. وتضم هذه الحركة مرحلتين: في الأولى تتراجع الوفيات فقط أي أن نسبة الأطفال الذين يولدون تكون مرتفعة، لكن لا يموت منهم، كما في السابق إلا عدد قليل، مما ينجم عنه ارتفاع في السكان، وهذا هو ما يميز في بحثنا، مرحل«العالمثالثية» (*Tiermondisation*). في المرحلة الثانية، تستمر الوفيات في التراجع، ولكن منحنى الولادات يتجه نحو الانخفاض، بمعنى أن نسبة الأطفال الذين يولدون تميل إلى لتناقص، مما يترتب عن ذلك خفض للنمو الطبيعي. وهذا هو ما أشرنا إليه في دراستنا بمرحلة التصنيع .

وعليه، مرت الساكنة الأوروبية بالمرحلة الأولى من حركتها السكانية، ألا و هي المرحلة «العالمثالثية» "، وهي الآن تجتاز مرحلتها الثانية، وقد شرعت في ولوج المرحلة الثالثة. في حين لا تزال دول الجنوب سجينة المرحلة الأولى.

في عام 1800، كانت ساكنة أوروبا تقدر بحوالي 180 مليون نسمة، ارتفعت بعد نصف قرن إلى 288 مليون نسمة، وفي عام 1900 إلى 492 مليون نسمة، ليبلغ عام 1950 572

مليون. ولكن مع انتشار الإجهاض وظهور وسائل جديدة لمنع الحمل، تراجعت نسبة الولادات بشكل ملحوظ: خلال الفترة الممتدة بين 1950 و 1965، انخفضت النسبة في السويد من 2,5 إلى 1,5 في المائة، وفي إيطاليا من 2,6 إلى 1,8 بالمائة، أما في هولندا، فقد تراجعت نسبة الولادات من 3 إلى 2 بالمائة، في حين انتقل المؤشر في المجر من 2,2 إلى 1,2 بالمائة.

كان عالم الاجتماع الشهير Gaston Bouthoul يرى في الارتفاع السريع للكتلة البشرية خلال المرحلة «العالمثالثية» طفرة حقيقية، لا ترجع أساسا إلى ارتفاع نسبة الولادات التي لم يتعد أقصاها 40 أو 50 في كل 1000 نسمة، ولكنها تعود إلى الانخفاض المذهل لمعدل الوفيات. في فرنسا، انخفض هذا المعدل من 21,3 إلى 16,5 في الألف ما بين 1850 و 1928. في انجلترا، تراجع من 22,4 إلى 11,7 بالألف، في حين عرف المعدل في ألمانيا هبوطا من 27,8 إلى 11,6 في الألف. ويؤكد Bouthoul أن هذا الانخفاض المدهش للوفيات، الذي يعتبر سبب الانفجار السكاني، يتخذ شكلين اثنين:

الشكل الأول يتمثل في انخفاض وفيات الأطفال. توضح الإحصائيات أنه في باريس، خلال سنة 1751، كانت مجموعة الأطفال، الذين تتراوح أعمارهم بين يوم واحد وثلاثين يوما، تفقد 70 بالمائة من أعدادها، أي أن ثلثي الأطفال المولودين كانوا يموتون قبل إتمام الشهر الواحد، انخفضت النسبة إلى 30 بالمائة بعد مرور قرن من الزمن. و بشكل أوضح، كان على المرأة في عام 1750 أن تنجب عشرة أطفال حتى تضمن بقاء ثلاثة على قيد الحياة. كان ذلك نوعا من التوازن الطبيعي. خلال سنة 1850، كان سبعة أطفال من أصل عشرة يبقون أحياء، مما يساهم في النمو السكاني. حاليا في أوروبا، من النادر جدا أن يموت مولود عمره شهر واحد، أما في دول الجنوب، فإن عصر الطفرة السكانية الأوروبية قد اختزل في عقدين أو ثلاثة عقود. و لعل النساء اللواتي يحتفظن اليوم بأغلبية مواليدهن أحياء، قد سمعن من أمهاتهن أو جداتهن كيف أن غالبية الوفيات في زمانهن كانت من الأطفال.

إن النتائج الأولى لهذا الانخفاض المذهل لوفيات الأطفال يرجع إلى التلقيح ضد مرض الجدري.

ولقد أدى استعمال هذا اللقاح الذي اكتشفه الطبيب الانجليزيEdward Jenner (1749-1823) إلى ارتفاع الساكنة بشكل ملموس.

يقول Gaston Bouthoul إن وباء الجدري كان قبل اكتشاف اللقاح دوريا ويودي بحياة نصف الساكنة من الأطفال. أما اليوم فقد اختفى هذا الداء كليا.

أما الشكل الثاني لانخفاض الوفيات والذي يعتبر سبب النمو السكاني فهو أن تقدم الطب وانتشار النظافة ساهما في تمديد متوسط العمر الذي كان موازيا للنمو الحضاري. في اليابان، يعتبر متوسط العمر الأعلى في العالم بحوالي 75,5 سنة في صفوف الرجال و 82,3 عند النساء. ومنذ الخمسينيات، ارتفع هذا المتوسط بما يفوق 40 بالمائة في الدول الفقيرة. وفي الفترة ما بين 1951 و 1971، انتقل مؤمل الحياة في الهند من 32,4 إلى 46,4 سنة بالنسبة للرجال، ومن 31,7 إلى 44,7 سنة بالنسبة للنساء.

إن الطفرة السكانية التي عرفتها انجلترا، وبعدها أوروبا منذ القرن 19، انتشرت بشكل سريع في الشق الجنوبي من الكرة الأرضية وخاصة في القرن العشرين عن طريق الاستعمار والمبادلات التجارية الدولية.

لتوضيح ذلك سنقوم بموازنة بين دولة أوروبية ودولة من أمريكا الجنوبية كان عدد سكانهما في البداية متساويا. في سنة 1800، كانت السويد تضم 2,5 مليون نسمة، بعد مرور نصف قرن، أصبحت ساكنتها 3,5 مليون نسمة ثم قفزت إلى 5,1 مليون نسمة في عام 1900. أما البيرو، فقد كان عدد سكانه 2,7 مليون نسمة خلال عام 1900، وهو ما يوازي تقريبا سكان السويد عام 1800. وكانت ساكنتا البلدين في سنة 1950 تقارب 6,1 مليون نسمة. إن التزايد السكاني الذي عرفته السويد في 150 عاما شهدته البيرو فقط على امتداد نصف قرن.

ويمكن إجراء مثل هذه المقارنة بين دول من الشمال وأخرى من الجنوب، وهذا هو حال البرازيل وإيطاليا على سبيل المثال. كانت دولة الجنوب ودولة الشمال، في البداية تتعادلان سكانيا، مع فرق قرن زمني، لكن سرعان ما تلتحق دولة الجنوب بدولة الشمال، بل تتجاوزها بشكل ملحوظ وهذا راجع إلى الوسائل الطبية التي انتشرت بشكل سريع خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. ولكن هل يتعلق الأمر هنا بنفس الظاهرة السكانية وبنفس أسبابها؟

لنفحص حالة الهند. قبل مجيء الانجليز، كانت الهند تضم 70 مليون نسمة، وفي سنة 941، كانت تحوي 315 مليون نسمة، وصلت عام 1951 إلى 356 مليون نسمة. يؤكد Gaston

Bouthoul في كتابه **التكاثر السكاني** أن مجهودات طبية دامت بضعة عقود كانت كافية لجعل ساكنة الهند تتزايد كل عشر سنوات بمعدل 50 مليون نسمة، أي ما يعادل ساكنة فرنسا. إن الانخفاض السريع للوفيات في دول العالم الثالث اليوم تعود على حد قول Bouthoul إلى الاختفاء المدهش للأوبئة التي كانت تفتك بحياة الناس، فالملاريا (حمى المستنقعات)، على سبيل المثال، اختفت في بضع سنوات وعرف النمو السكاني بعدها بقليل قفزة هامة وصلت إلى 2,7 في كل سنة. هكذا أدى اختفاء حمى المستنقعات التي كانت سبب انتشار مرضى الزهري في إفريقيا الشمالية والشرق الأوسط إلى ارتفاع النمو السكاني.

لقد كان لتطبيق القواعد الأساسية للنظافة كالتنظيف بالماء و التحكم في أمراض الأطفال الفتاكة مثل السعال الديكي والتهاب السحايا والأمراض الطفيلية أثر عميق في ارتفاع النمو السكاني. من جهة أخرى، ساهم استعمال مختلف اللقاحات والمضادات الحيوية (مثل الكينين) وإنشاء العديد من المراكز الصحية والرفع من الطاقم الطبي (من طبيب واحد لكل 12088 نسمة إلى طبيب لكل 5772 نسمة في الفترة ما بين 1962 و 1980) في إحداث انفجارات سكانية قوية أطلق عليها اسم "القنبلة السكانية".

يشير Gaston Bouthoul إلى نقطة هامة تشكل أساس مقاربتنا لأصل العالم الثالث وتتلخص في أن النمو السكاني الذي يفضل تسميته "الطفرة الديمغرافية" انطلق من انجلترا، مع اكتشاف لقاح جينير لينتشر في أوروبا الغربية، وبعدها في أوروبا الشرقية، ثم في أمريكا الجنوبية وأخير في أسيا وإفريقيا.

و لكن العالم الثالث اليوم فتح ذراعيه بالجملة للتطورات الطبية الحديثة على امتداد قرن ونصف في غياب قاعدة تربوية تساعد على التخفيف من أثر الصدمة المحتملة. لذا فالاكتشافات وتطبيقاتها التي أحدثت انفجارات سكانية في أوروبا، تدفقت على دول الجنوب محدثة تأثيرات مضاعفة. وإذا كانت القوى الصناعية والاستعمارية التي كانت بلدانها منطلقا للتطورات الطبية والتقنية قادرة على التحكم تدريجيا في وضعيتها الديمغرافية فإن دول الجنوب التي فرضت عليها هذه الاكتشافات الجديدة كانت في الحقيقة عاجزة على التعامل معها وفهمها.

يرى Gaston Bouthoul أن انسحاب المستعمر خلف لدى الشعوب التي احتلها عقدة يطلق عليها «عقدة اليتيم»، وهو إحساس من لم يعد يعول على أبيه أو من يحمله مسؤولية ما لحق به من شقاء.

إن الآفات التي ترجع إلى التفكك البنيوي للمجتمعات قبيل ولوجها عصر الحضارة الصناعية بزغت في أوروبا على شكل إيديولوجيات ثورية ضد التفكك العميق الذي درسناه في بداية هذه الفقرة ونؤكد على ارتباطه العضوي بتطور الحضارة الصناعية.

رأينا فيما سلف أن ساكنة الهند، في ظل الاستعمار الانجليزي، انتقلت من 70 مليون نسمة إلى 350 مليون نسمة. كما ارتفعت ساكنة "جاوا" (Java) التي استعمرها الهولنديون من 2 إلى 50 مليون نسمة. أما الجزائر التي كانت ترزح تحت الاستعمار الفرنسي فقد انتقلت ساكنتها من مليون نسمة إلى 12 مليون نسمة.

كانت الدول الاستعمارية آنذاك تعتبر هذه الارتفاعات الديمغرافية نجاحا كبيرا لسياساتها، لذا كانت تفاخر بعرض إحصائياتها في معارض خاصة تقام لهذا الغرض. إن الفقر الذي أعقب تلك الفترة جعل المستعمر يحس راحة الانسحاب تاركا خلفه على حد قول Gaston Bouthoul ما كان الهندوس يطلقون عليه British Radj وهو مزيج من القومية والعنصرية والتعصب الديني.

كان الانفجار الديمغرافي، الذي شهدته أوروبا، خلال القرن 19، أقل أهمية مما عرفته دول الجنوب في القرن 20 لأسباب أشرنا إليها آنفا.و بالتالي، كان هذا الانفجار يتراجع بفضل امتصاص الصناعات المستحدثة لليد العاملة، وكذا هجرة السكان إلى القارات والمستعمرات الجديدة، وانتشار الحروب المختلفة. تعتبر دول الجنوب التصنيع وفق المقياس الأوروبي أمرا ممكنا، قد يعني نشوء كارثة أخرى تتمثل في المعضلة البيئية. وبذلك تصبح الهجرة عملية مستحيلة، في انتظار اكتشاف كوكب جديد. وهكذا تبقى الحروب كابوسا يلبد بقتامته آفاق البشر، و يالها من آفاق حزينة ! إن هذا المستقبل المرعب هو ما يشكل في جوهره «شبح العالم الثالث».

حاولنا خلال هذه المقاربة الأولى حول أصل العالم الثالث أن نوضح أن تطوره التاريخي انطلق من انجلترا في القرن 19، حيث تظافرت الشروط التقنية والفكرية والطبية التي أنجبت

الحضارة الصناعية. إن الانتقال من الشكل العتيق للمجتمع نحو شكل جديد صناعي قلب القواعد القديمة رأسا على عقب محدثا بذلك نوعا من الفوضى والانبهار في آن معا. ومن ثم انتشرت الحضارة الصناعية في سائر المعمور بعد أن تعممت في القارة الأوروبية، وأحدثت الإشراقة نفسها والدمار نفسه، وأشاعت النور والظلام على حد سواء.

وعليه، تجاوبت كافة الشعوب، دون استثناء، وبنفس الأسلوب، مع هذه الحضارة وإفرازاتها، وعوارضها المرضية التي تفشت اليوم في العالم الثالث والتي بيناها من خلال مؤلف Engels **أوضاع الطبقة العاملة في انجلترا.**

في أوروبا، وبعد هذه المرحلة الجنينية الصعبة التي أطلقنا عليها مرحلة «العالمثالثية»، لأنها تذكرنا بمميزات العالم الثالث الراهن، بدأ عهد جديد من الاستقرار أثر إيجابا في المجتمعات بأكملها ثم القارات جميعها. تراجع الانفجار السكاني وتناقصت حدة الفقر، وتباطأ إيقاع الهجرة، وأخيرا استنشقت البشرية نسيم الرفاهية التي عمت كل أرجاء الأرض، وأصبح الإنسان يشتغل بمجهود أقل مقابل أجر يضمن له رغد العيش. إن هذه الثروات التي تراكمت وتعممت في سائر دول الشمال يقابلها، وللأسف، الفقر المدقع في دول الجنوب التي تجتاز المرحلة الأولى من تطورها الصناعي. ودول الشمال التي تعتلي أعلى درجات السلم الحضاري نسيت على ما يبدو الصعوبات القاسية التي مرت بها قبل أن تتخلص من الأزمات العالمثالثية، الشيء الذي يجعلها اليوم غير قادرة على فهم و تحديد ما يعانيه الجنوب.

تنطوي مقارنة نمط الحياة الغربي وأنماط الحياة والثقافات في دول العالم الثالث على كثير من الإجحاف لأن هناك خلطا سافرا بين النمط الغربي والنمط العصري. منذ الثروة الصناعية تغيرت معالم الحياة الغربية التي تأثرت كثيرا بالثقافات الوافدة من باقي القارات واختلطت الفنون الحديثة بالموسيقى الإفريقية وتغيرت ملامح اللباس الأوربي الذي استوحى ألوانه وتشكيلاته من التراث الإفريقي الموغل في الغرابة.

لكن سرعان ما تغيرت الأوضاع تحت تأثير مكننة قطاع النسيج والألبسة، وأقيمت في شتى العواصم العالمية دور خاصة لعرض أروع وأغرب ما نسجته مصانع الأقمشة في الدول الغربية التي أصبحت قبلة تؤمها العقول الفذة الهاربة من فقر بلدانها في الجنوب. لقد ساهمت هذه الأدمغة بحق في بلورة الحضارة الصناعية التي اتخذت فيما بعد بعدا كونيا.

عرفت الديانة المسيحية التي شكلت لما يزيد عن ألفي سنة ملاذا روحيا للإنسان الأوربي انتكاسة كبيرة بفعل الفلسفات الملحدة التي أفرزتها الثورة الصناعية. لقد أحدث تراجع الدور الديني فراغا غير مسبوق في نفوس الناس الذي استعاضوا عن عقيدتهم الروحية بشتى أنواع المواد الاستهلاكية الجديدة، وتحولت المجتمعات الحديثة إلى قطعان بشرية تقودها غرائزها الحيوانية إلى مستنقع الإنتاج و الاستهلاك.

فيما يخص مسألة صدام الحضارات نرى وبكل بساطة أن لا وجود لذالك الصدام المفتعل ولا وجود لتلك الاختلافات المفترضة لأن الثقافة كيان متحرك لا يقبل الجمود، وهي سيرورة ونتاج لمعارف و تجارب جديدة تتوارثها الأجيال عن طريق التربية والتنشئة الاجتماعية. و الإنسان كائن ثقافي بامتياز أي أنه لا يولد بمورثات تحمل ثقافة بعينها. الإنسان ابن بيئته، لا يحمل سوى ثقافة الوطن الذي شب فيه وترعرع. و عليه، إذا أعطينا كل أطفال العالم نفس التربية الحديثة فسوف تكون البشرية حاملة لنفس الثقافة ونفس الوعي بل ونفس الرؤية الفكرية. إن التربية والتعليم كفيلان بتجنيب العالم مخاطر ما يصطلح عليه بصدام الحضارات. لقد اتخذت الظاهرة في السنوات الأخيرة أشكالا عدائية صارت محط اهتمام الدارسين الاستراتيجيين. سوف نتطرق إلى هذه الإشكالية الحساسة في القسم الثالث من دراستنا.

الفقـرة الثانيـة: رؤى فكرية حـول مفهـوم العالـم الثالـث:

حاولنـا فـي الصـفحات السـابقة أن نبين أن العـالم الثالـث ليس ظـاهرة معزولـة فـي الزمـان والمكـان مقتصـرة علـى القرن العشـرين وعلـى الشق الجنـوبي من الكـرة الأرضـية، ولكنهـا تحـول اجتماعي يهم العالم بأسره.

يعتبـر الكثيـر مـن الخبـراء الغـربيين العـالم الثالـث كيانـا غريبـا يسـتحيل تعريفـه، وتصـعب الإحاطة بمعالمه. إنهم يخلطون بين الظاهرة الكونية في ذاتها والطابع الخاص الذي تتخذه اليوم فـي دول الجنوب.

إن الغـربيين أنفسـهم يجهلـون أنهـم حفدة العـالم الثالـث. هكـذا تجـد الظـاهرة نفسـها محاطـة بسوء الفهم. و قد انكب العديد من الكتاب علـى دراسـة الظـاهرة وأفرغوا طاقـات هائلـة فـي تعريـف العالم الثالث بدل استشراف آفاقه ومستقبله. والقليل منهم فهم ماهيـة الظـاهرة وتكوينهـا التـاريخي، واستنبط الآليات الرئيسية التي دفعت المجتمعات الأوروبية للانتقال من التفكك البنيوي إبـان القرن التاسع عشر إلى الاستقرار خلال القرن العشرين ومن «العالمثالثية» إلى التحديث والتصنيع.

تعكس المؤلفات التي أشرنا إليها، على سبيل المثال لا الحصر، التناقضات الصـارخة التـي سـقط فيهـا معظـم الكتـاب الـذين يرفضـون حتـى مصـطلح «العـالم الثالـث» الـذي يكتبونـه بشـكلين متباينين (Tiers monde ≠ tiers-Monde).

إن تسمية «العالم الثالث» التي نجدها مناسبة لوصف هذه المجموعة المتباينة من القـارات والـدول والثقافـات التـي تحمـل نفس السـمات الاجتماعيـة مـا قبـل الصـناعية، ليسـت فـي نظرنـا ذات أهميـة كبـرى. والواقـع أن مفهـوم العـالم الثالـث، الـذي يطلـق علـى عـالم لا ينتمـي لا إلـى المعسـكر الشيوعي المنهار ولا إلى المعسكر الرأسمالي، مقتبس، حسـب عـالم الديموغرافيا Afred Sauvy، مـن كلمة «Tiers-Etat»، وهي صفة كانت تنعت بها خلال القرن الثامن عشر، فئـة مـن الشـعب الفرنسـي لم تكن تنتمي إلى طبقتي رجال الدين والنبلاء.

إن انهيار المعسكر الشرقي الشيوعي، الذي يشكل أحد العوالم التي تحدث عنها Afred Sauvy ، يجعل من أطروحة العوالم الثلاثة، خلال نهاية القرن العشرين الصاخب، نظريـة خاطئـة. إذا كـان هناك «عالما ثالثا» بالمعنى الذي أشار إليه Sauvy، فإنه لم يعد كذلك فـي كل الحـالات، لأن الكاتـب يـرى أن نشـوء العـالم الثالـث كـان متزامنـا مـع تحـرر الشـعوب المسـتعمرة. فـي الواقـع، يتخـذ هـذا المفهوم بعدا سياسيا.

يستعـرض المعجم الفرنسـي Le Grand Larousse فـي مـادة «العالم الثالث » كـل الآلام التـي يقاسيها هذا الكيان الجغرافي نافيا وجود وصـفة سـحرية من شـأنها معالجتـه أو حتـى التخفيف عنـه. يقف القـارئ فـي واقـع الأمـر أمـام وفـرة النظريـات المفسـرة للعـالم الثالـث عـاجزا عـن فهـم كـل تلـك الدراسات المتضاربة واستيعاب تناقضاتها الإيديولوجية.

أ- دراســــــات التنميـــــة :

تتبع أهم التحليلات من ثلاث مدارس : المدرسة الليبرالية والمدرسة الاشتراكية ثم المدرسة البدائلية أو البيئية. وتتناسل داخل هذه المدارس تيارات واتجاهات يتفاوت عددها وتختلف طبيعتها.

1- التحـليــلات الليبـراليـــــــة :

تبقى التحليلات الليبرالية متأثرة بمؤسسيها الكلاسيكيين من أمثال Adam Smith الذي يؤكد على الدور الوازن للسوق والأيادي الخصبة للمقاولين، و David Ricardo الذي يتبنى نظرية «الامتيازات المقارنة» وتخصص كل اقتصاد حسب مكامن قوته في الاقتصاد عالمي. و تتمثل مشاكل العالم الثالث، بالنسبة لليبراليين، في عدم احترام القواعد الاقتصادية الأساسية مثل التبادل الحر وحقيقة الأسعار. ويرجع عدم احترام القواعد إلى سلسلة من الظواهر التي ما فتئ الليبراليون ينتقدونا مثل اختلال التوازنات الاقتصادية والمالية وعجز الميزانية والميزان التجاري وتعطل نشاط المقاولين بفعل التدخل السافر للدولة في مشاريعهم، وكذا الانخراط المفرط للعمال في الهيئات النقابية.

تمثل المدرسة الليبرالية التي لا تزال تسيطر، أكثر من ذي قبل، على الحياة الاقتصادية الدولية مذهب المنظمات الدولية كصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية والبنك الدولي. ومع ذلك، لا يزال البعض يتساءل عما إذا كانت دول العالم الثالث قادرة على تشجيع "امتيازاتها المقارنة". وهل بالإمكان منافسة هذه البلدان منافسة شريفة؟

2- التحـليـــــــلات المـــاركسيـــــــة :

تشبه التحليلات الماركسية المتجاوزة على نطاق واسع العالم الثالث –على غرار البروليتاريا في دول الشمال– بجيش عمل احتياطي لدى القوى الإمبريالية.

من هنا انتشر النظام الرأسمالي بسهولة، حيث وجد المنافذ المواتية لتنمية فائض الرأسمال. ومن هذا التيار الماركسي، بزغت شخصية أخرى متميزة، وهي شخصية المفكر المصري سمير أمين، مؤلف **التراكم على الصعيد العالمي** و**التنمية المتفاوتة**. يؤاخذ سمير أمين على Rostow عدم أخذ هذا الأخير بعين الاعتبار التاريخ الخاص بكل بلد وانتمائه للنظام العالمي الذي يختلف جذريا

عن العصور الماضية. يضيف أمين أن صاحب كتاب **مراحل النمو الاقتصادي** أغفل في تحليلاته موازين القوة التي قد تنشأ بين «المركز» المهيمن و «الأطراف» الخاضعة .

يتحدث سمير أمين عن التراكم على الصعيد العالمي وعن الرأسمالية التي وطنت في العالم الثالث قطاعات إنتاجية موجهة نحو التصدير. إن هذا التحليل تعتريه في الحقيقة بعض الثغرات. من جهة، لا أحد يمنع شعوب العالم الثالث من أن تراكم الرساميل التي ترغب بها وتنميها أينما شاءت كما تفعل بعض الدول الأسيوية، من جهة أخرى، يعاني العالم الثالث نفس الشرور التي كابدتها أوروبا خلال القرن التاسع عشر، ومنها الفقر والتكاثر السكاني والهجرة و الصراعات بجميع أشكالها. فأين كان «المركز» المهيمن عندما كانت أوروبا تشكل «الأطراف» ؟

إذا كان التبادل الدولي الذي يتحكم فيه «المركز» يقوي تقسيم العمل بتفاوتاته على الصعيد العالمي، و يخلق علاقات ترابط بين الجنوب والشمال، فبمن كان الشمال مرتبطا في القرن التاسع عشر ؟ وبماذا نفسر فقر الجماهير العريضة في دول الشمال خلال ذلك القرن ، إذا كان التبادل الدولي الحر قد راكم في تلك البلدان، بفضل قدرة هذه الأخيرة على فرض الأسعار، الثروات التي أنتجها الجنوب البائس؟ ما طبيعة هذا التبادل الدولي الذي سلب الجنوب خيراته وثرواته؟

يعتبر سمير أمين و Argliri Emmamel مؤلف **التبادل المتفاوت** و Immanuel Wallerstein واضع كتاب **الرأسمالية والاقتصاد–العالم** و A. Gunder Frank صاحب كتاب **تنمية التخلف**، أهم ممثلي نظرية التبادل المتفاوت، التي أصبحت اليوم متجاوزة.

يرى المنظرون ذوو التوجه الماركسي أن الاقتصاديات التقليدية التي انهارت تحت وطأة الاستعمار والرأسمالية تخلق معدل بطالة مرتفع، مما يؤدي إلى تدني الأجور الذي تنتج عنه استحالة تجدد قوى العمل. وعلاوة على ذلك يصعب تحقيق الادخار والاستثمار الضروريين للإقلاع الاقتصادي، وهكذا تصبح التنمية غير ممكنة. وفي هذا المناخ، تجد الاقتصاديات المحلية الضعيفة نفسها مرهونة بالدعم الدولي.

إن إفقار شعوب العالم الثالث من طرف «المركز» ، حليف البورجوازيات المحلية التي تسود أوطانها بالترهيب، هو ما يمكن أن نطلق عليه «رأسمالية الأطراف المتخلفة». إن الحلول التي يمكن للعالم الثالث تبنيها للخروج من تخلفه قد تكمن في محاربة البورجوازيات والرأسمالية

الدولية. وهذه الأطروحات، التي يمكن نعتها «بالعالمثالثية»، تنطوي على شيء من الحقيقة، ولكن خلطها للأشياء يجعلها عقيمة.

صحيح أن الكثير من دول العالم الثالث تسودها حكومات الحزب الوحيد، على الرغم من التعددية السياسية، التي أصبحت تتنامى، ولكن، مع ذلك، لا يجب النظر إلى البورجوازيات والرأسمال الدولي نظرة سلبية، كما تذهب إلى ذلك هذه النظريات والتي لا تفرق بين التحالف البناء للبورجوازيات الشريفة والرأسمال الدولي، وبين تواطؤ البورجوازيات الفاسدة مع الحكومات المجرمة. ذلك لأن في العالم الثالث بورجوازيات "سليمة" تضم المقاولين ورجال الأعمال، الذين يساهمون بفعالية في تنمية اقتصاديات بلدانهم ويقاطعون الإدارات الفاسدة والبيروقراطية، لأنها من وجهة نظرهم تعرقل نشاطاتهم وتحد من التطور الاقتصادي لأوطانهم. وعليه، فالفساد طاعون يزج بسياسة التنمية إلى غياهب الفشل. إن الاغتناء السليم للبورجوازيين وأرباب المقاولات يعتبر إغناء للمجتمع برمته، وإن الفساد الذي يمكن بعض المنحرفين من الاغتناء الفاحش يساهم في إفقار المجتمع. وهكذا فإن على المنتظم الدولي الإسراع بإنقاذ أجهزة الدول في العالم الثالث من الفساد، وهذا لن يتأتى إلا بوضع استراتيجيات جديدة للتنمية بدل التضحية بالبورجوازيات المحلية والرأسمالية الدولية.

لكن أ ليس من التناقض الصارخ أن يسعى هذا المنتظم الدولي إلى تخليص العالم الثالث من آفاته، وهو الذي يشرف في الخفاء على تنصيب حكامه وساسته، الذين يبتزون خيرات شعوبهم ؟ لقد حان الوقت لإبعاد الكثير من رؤساء الدول في الجنوب و محاكمتهم لارتكابهم جرائم ضد الإنسانية.

إن الأمم المتحدة التي يجب أن تلعب دورا قياديا على الصعيد العالمي، تجد نفسها اليوم لعبة في أيادي ثلة من الدول العظمى. ويقف أمينها العام عاجزا عن النهوض بمسؤولياته الثقيلة، تتقاذفه شرذمة من الخارجين عن القانون. إن أكبر تحد ينتظر القرن الواحد والعشرين هو إعطاء منظمة الأمم المتحدة القدر الكافي من القوة والهيبة حتى يتسنى لها إشاعة النظام و الديمقراطية في العالم. و أخيرا، علينا إيجاد توازن للقوى داخل المنظمة الدولية حتى تتمكن من فرض القانون على الجميع. سنعود إلى هذه النقطة فيما بعد.

3- التحليـــــــلات الـحتميـــــــة :

يرى Henri Rouillé d'Orfeuil في كتابه **العالم الثالث** يرى أن التحليلات الحتمية تحدد معالم العالم الثالث من خلال العوائق الطبيعية والثقافية. لكن الملاحظ أن هذه العوائق الطبيعية مثل المناخ الرطب والحار التي تطبع مناطق من إفريقيا وآسيا تختفي في مناطق أخرى تتميز بنفس الظروف المناخية. يشير الكاتب إلى نموذج استراليا وتكساس، اللتان تتوفران على تربة فقيرة، ومع ذلك، تعادل مردوديتهما مر دودية كينيا التي يمكنها أن تنتج ثلاثة محاصيل في السنة.

في إفريقيا الجنوبية، تعيش مجموعتان بشريتان مختلفتان، في ظل مناخ واحد، وتربة واحدة. تتبع الأولى أسلوب حياة صناعي، أما الثانية فلا تزال حياتها التقليدية تنهل من ينابيع الماضي. يشكل مثال إفريقيا الجنوبية، بالنسبة للتحليلات الحتمية، نموذجا حيا للعوائق الثقافية.

في غالب الأحيان، يشير الناس إلى هذه العوائق لأهداف عنصرية، لأن "العرق"، على حد قول بعض منظري الإيديولوجيا، عنصر حاسم في تحديد مصير الإنسان. وهكذا ينفرد المجتمع الأبيض الأنجلو سكسوني البروتستانتي، في نظر أنصاره، بقدرته الخلاقة على بناء الحضارة. نعتقد، من جهتنا، أن هذا التحليل التافه والفج، نتاج عقلية كرستها ظروف تاريخية، نخشى أن تعصف رياحها من جديد، فتأتي على الأخضر واليابس.

يؤكد Claude Lévi-Strauss، في كتابه **عرق وتاريخ** أنه «من السخيف جدا أن نستنفد كل تلك الطاقات الهائلة لإبراز أن التفوق الفكري ليس حكرا على عرق دون غيره».

4- التحليـــــلات البدائـلـيـــــة :

إن التحليلات البدائلية لا تأخذ بعين الاعتبار- شأنها في ذلك شأن الليبراليين والماركسيين- التنمية كسيرورة نمو وتراكم وتصنيع. إنها لا تثق بالعلم ولا بالتقنية، ولكنها بالمقابل تتسم بشغفها الرومانسي بكل ما هو أصيل وطبيعي، وتبغض البنى الصناعية الضخمة والتكنولوجيا المعقدة والتهافت وراء المنتوجات الجديدة للاقتصاد الاستهلاكي.

إن أفكار «البدائليين» وأطروحاتهم التي تغلب عليها الرومانسية. قد تكون ناجعة في بعض الحالات المحدودة لكنها تقف عاجزة على حلحلة المعضلات الكبرى، كالانفجار السكاني والهجرة القروية المكثفة والتعمير المفرط، لأن مسلسل الانتقال من «العالمثالثية» إلى "التصنيع" مسلسل حتمي.

ولكن المهم هو أن هذه الأطروحات تندرج في إطار حركة بيئية على الصعيد العالمي. أما فائدتها، بالنسبة للعالم الثالث، فتكمن في الاهتمام بمشكل التصحر بدل التصنيع، مما يعني التنمية بالاصطلاح التقليدي للكلمة.

في عام 1972، أثار "نادي روما" في دوريته Halte à la croissance الانتباه إلى تعرية التربة واستنزاف الآبار واجتثاث الغابات وانقراض بعض الأنواع الحيوانية. في بعض المناطق الإفريقية، صارت الغابات نادرة بسبب الحرائق والاستعمال المفرط للأخشاب. أما في جبال الأنديز، فتجد الأسر الريفية نفسها مجبرة على قطع عشرات الكيلومترات يوميا بحثا عن الخشب والحطب.

في مثل هذه المناطق، التي تستنزف غاباتها تتحول الأرض إلى صحاري، وتكتسح الصحراء مساحات شاسعة من إفريقيا، بدءا من «الأطلس» ونزولا إلى «الساحل» (Le Sahel). وتفقد الغابات في هذه البقاع الإفريقية 2,5 مليون هكتارا سنويا. وحسب منظمة التغذية العالمية (F.A.O) يخسر العالم في المناطق القاحلة ما لا يقل عن 4 ملايين هكتار في كل سنة. ولقد عرف الرصيد الغابوي هو أيضا استنزافا خطيرا، لأن التربة المدارية تشكو من انجرافات سنوية مهولة، بفعل الأمطار الغزيرة والقوية، التي «تغسل» قشرة الأرض الدقيقة، محولة الحقول إلى صحاري عقيمة. يعتبر الاستغلال المفرط للتربة واجتثاث الغابات، بنتائجهما البيئية الخطيرة، من بين إفرازات الانفجار السكاني المباشرة. وعليه، فإن التوازن البيئي وثيق الصلة بالتوازن «الديمغرافي».

سوف نتطرق إلى هذا الموضوع لاحقا لأن العالم الثالث المنهك لم يعد يغري الباحثين المنتقدين للعالم الأول لذا صار مبحثا مثيرا لأنصار الإيديولوجيا المناهضة للعولمة ذات التوجه البيئي.

ب - إستـراتيجيـات التنميـــــة:

1- الإستـراتيـجيـــات اللـيبراليـــة :

تهيمن الاستراتيجيات الليبرالية، في الوقت الراهن، على التنمية في الساحة الدولية على الرغم من تنوع وتعدد الاستراتيجيات الأخرى. رأينا فيما سلف أن الحضارة الصناعية تطورت وفق مرحلتين، الأولى تتسم بالفوضى والخلل، أما الثانية فبالتثبيت والرفاهية. و كان هذا التطور الذي ينتقل داخل المجتمع من مجموعة إلى أخرى، ومن منطقة إلى أخرى، ليشمل البلد برمته والقارة برمتها، قد انطلق في البداية من رقعة جغرافية كانت ظروفها التاريخية وقدراتها البشرية ملائمة

لولوج عهد الحضارة الجديدة. ومع ذلك قد نجد أجزاء من المجتمع، في القارات الأكثر تقدما، لا تزال تقبع في الظلام خارج هذه الحضارة المستنيرة. في هذا الاتجاه، لا تزال بعض المناطق الأوروبية في كل من إيطاليا و البرتغال وايرلندا وفرنسا تتسم إلى يومنا هذا بطابع "مزدوج"، مقارنة مع باقي المناطق الأوروبية. إن الحضارة الإنسانية كلها تطورت عبر العصور بوثيرة بطيئة، من منطقة إلى أخرى، وإن ظاهرة الازدواجية تميز في الحقيقة أرجاء كثيرة من عالم اليوم.

2- الإستراتيجية الديمغرفية :

تتمثل هذه الإستراتيجية في مجموعة من الإجراءات المضادة للولادات والتي بدأت بالظهور خلال الخمسينيات من القرن الماضي، لكن نجاعتها كانت محدودة إذا استثنينا حالة الصين التي طبقت وبنجاح سياسة إنجابية تكمن فيما كان يصطلح عليه بالطفل الواحد للأسرة الواحدة . لقد ساهمت هذه السياسة في خفض معدل النمو الديمغرافي من أربعة بالمائة عام 1950 إلى 1,5 بالمائة عام 1986 ثم إلى 0,9 بالمائة عام 2000. في بداية هذا القرن الواحد والعشرين الذي يشهد انفجارا سكانيا غير مسبوق تعتبر الصين أنموذجا يجب أن تقتدي به باقي دول العالم الثالث.

ما كان العالم ليعرف كل هذه المآزق الديمغرافية الخطيرة لو أخذ على محمل الجد مخاوف المفكر روبرت مالتوس Malthus الذي كان يحذر بشدة من السير قدما في السياسة الإنجابية.

3- الإستراتيجية الغذائية :

تتدخل الإستراتيجية الغذائية في المناطق التي تشهد موجات من الجوع، بهدف إنقاذ أرواح ما يزيد عن 500 مليون شخص. ولا تستثني هذه الإستراتيجية البلدان الغنية، ففي الولايات المتحدة فقط، يوجد ما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين مليون معوزا، حسب وكالة الإحصاء الأمريكية (Census Bureau).

لكن تظل إفريقيا، التي تضم 150 مليون جائعا، القارة الأكثر تضررا من آفة المجاعة. ويختلف المنظرون حول الاستراتيجيات الغذائية، فبعضهم يدعو إلى توزيع فائض إنتاج الدول الغنية على الدول الفقيرة، والبعض الآخر يقترح إستراتيجية الاكتفاء الذاتي الغذائي، لأن الحل الأول في نظرهم عقيم، ويكرس تبعية العالم الثالث للدول الثرية.

كانت المجاعة، حتى القرن التاسع عشر، كارثة طبيعية عرفتها كل القارات بشكل دوري. اختفت هذه الآفة من أوروبا ابتداء من القرن التاسع عشر، لكن سرعان ما أخذ الجوع مكانها كمتغير قار يرتبط "بالعالمثالثية" (Tiermondisation).

هكذا أصبحت دول الجنوب التي كانت تصدر المواد الغذائية، عند بداية القرن العشرين، تعتمد على الاستيراد باستثناء قلة قليلة من البلدان. وعليه، فالدول التي تتوفر على موارد مهمة، تفلح في غالب الأحيان، في مواجهة آفة الجوع، أما تلك التي تشكو ندرة الموارد، فتجد في المساعدات الدولية حلا لمعضلتها.

عندما ننظر للإحصائيات، فإننا يمكن أن نردد على غرار الأخت Emmanuelle القديسة الفرنسية المعروفة، أن "جود العالم كبير". في عام 1984 شملت المساعدات الغذائية، حسب قول Henri d'Orfeuil حوالي مائة دولة ووزعت 12 مليون طن من الحبوب.

تخضع فلاحة العالم الثالث إلى ضغط مزدوج، ضغط ديمغرافي، و آخر مرتبط بالسوق العالمية يزيد من حدته الاستغلال المفرط للتربة والاستعمال العشوائي للتقنيات الحديثة. وما لم يتوقف الضغط السكاني، ولما لم يتحكم الناس في « التكنولوجيات » ، سيبقى العالم الثالث يعاني من نقائص كثيرة على المستويين الفلاحي و الغذائي.

4- الإستراتيجية الصناعية :

إن الإستراتيجية الصناعية مضبوطة بدقة فائقة، لأن الحضارة تعني في أذهان الكثيرين التصنيع، لذا نجد الشعوب تتهافت وراء تصنيع بلدانها مستعملة في ذلك كل الوسائل الممكنة.

يقتني العديد من زعماء العالم الثالث مصانع جاهزة من الخارج و «يزرعونها» في بلدانهم ظانين بسذاجة أنهم قد أدخلوا أوطانهم في خانة الأمم المصنعة. إن التصنيع عملية معقدة تتطلب نفسا طويلا وجهدا مريرا.

5- الإستراتيجية المالية :

. تتجلى الإستراتيجية المالية في منح دول الجنوب قروضا من لدن المؤسسات البنكية الدولية، كالبنك الدولي، من أجل تمويل تنميتها. ولكن هذه الدول المستفيدة، التي وجدت نفسها

مرمية في أتون السوق العالمية، بالغت في الاقتراض خاصة خلال السنوات التي تلت الصدمة النفطية لسنة 1973، تلك السنة التي شهدت تضخما ساهمت حدته في الزج بالاقتصاد العالمي في أزمة حقيقية.

وبدءا من سنوات الثمانينات، حقق الدولار ومعدلات الفائدة، ارتفاعا "صاروخيا"، الشيء الذي دفع الولايات المتحدة إلى جلب الرساميل لسد عجزها المالي. ومن الواضح أن الاقتصاد العالمي دخل حقبة جديدة أطلق عليها اسم "العولمة" (Mondialisation). في الواقع، عرفت المبادلات التجارية سرعة مذهلة وشهدت معدلات النمو والاستثمار والاستهلاك إيقاعا متذبذبا بينما وجهت الرساميل إلى أوروبا الشرقية التي تحررت من عبء الشيوعية.

أما اقتصاديات العالم الثالث، فوجدت نفسها مثقلة بالديون وغير قادرة على المقاومة والتصدير إلى السوق العالمية الذي اتسمت بعدم الاستقرار.

إن مشكلة ديون العالم الثالث، التي تتجاوز ألف مليار دولار، اتخذت اليوم بعدا مخيفا. ذلك أن هذه البلدان تقف عاجزة عن تسديد مديونيتها الضخمة التي تعادل أكثر من نصف ناتجها الوطني الخام (P.N.B). وعليه فالعالم الثالث سوف لن ينتمي مستقبلا للعالم الثالث، بل سيصبح ملكا للمؤسسات البنكية الكبرى، التي لا ترغب فيه بالطبع، لأنه عديم القيمة في لغة السوق العالمية. يعيش العالم الثالث منذ الآن على الاقتراض، لكن أغلبية القروض التي يستفيد منها لم تعد موجهة للاستثمار، ولكن فقط لشراء المواد الاستهلاكية الضرورية ولضمان اشتغال أجهزة الدولة. لكن معضلة الديون في العالم الثالث يشوبها نوع من الغموض، لأن التحويلات المالية من دول الشمال إلى دول الجنوب غالبا ما ترجع إلى الشمال على شكل محجوزات لمقاولاتها، هذا دون احتساب 140 مليار دولار كقيمة لخدمات تلك الديون.وعلاوة على ذلك، تعيد الشركات المتعددة الجنسيات التي تتمركز في الجنوب أرباحها، في غالب الأحيان إلى بلدانها، الشيء الذي يشكل نوعا من تهريب الرساميل، وهو كارثة تنضاف إلى الكوارث التي تقاسيها دول الجنوب. ولقد قدر البنك العالمي هذه الرساميل المهربة سنة 1988 بحوالي 80 مليار دولار. في بعض دول العالم الثالث تفوق هذه الرساميل أحيانا إنتاج هذه الدول السنوي، حيث تشكل تقريبا 190 بالمائة من الناتج القومي الخام للغابون، و 150 بالمائة لمصر و 140 بالمائة لنيكاراغوا و 120 بالمائة للسودان و 110 بالمائة لسورية...

بالمقابل لم تتجاوز الرساميل المحولة، على سبيل المثال، إلى دول الجنوب سنة 1988، 80 مليار دولار، بالإضافة إلى 25 مليار من التحويلات المالية للعمال المهاجرين.

إن النتيجة الإجمالية لحركة الرساميل تعود في الأخير بالنفع العميم على الدول المصنعة، التي يمكن تشبيهها بسحرة يجنون بيدهم اليسرى ضعف ما يعطونه باليمنى، ولإخفاء حقيقة لعبتهم يقترحون على العالم الثالث حلولا جاهزة.

على سبيل المثال، يقترحون إدماج الاقتصاديات الوطنية في السوق العالمي، بهدف سد العجز في الميزانية، مع إزالة الحواجز أمام المبادلات الخارجية ، "والتدخل" في تلك الاقتصاديات لدفعها إلى الأمام على حد تعبير Keynes.

تتبع أغلبية دول العالم الثالث، وبشكل مستكين هذه التوصيات أما البعض الآخر فيحاول على العكس الانعتاق من السوق العالمية التي غدت قبلة معظم الاستراتيجيات التنموية في بداية القرن الحالي.

استطاع الإنسان التغلب على الكوارث الطبيعية الكبرى، والأوبئة و المجاعات بواسطة أداة لا يتحكم فيها، إذ أصبح مصير الملايير من البشر مرهونا بتقلبات السوق الذي يفرض على الناس قوانينه الرعناء. إنه كيان نفوض إليه، بطريقة عمياء، تحديد الأسعار والإنتاج دون أن نعرفه جيدا لأن أكفأ الاقتصاديين يعجزون عن إصلاح "أعطاله" التي يمكن أن تكون انعكاساتها مأساوية وقاتلة.

ينتظر الإنسان الحديث من السوق أن تباركه، شأنه شأن الإنسان البدائي، الذي كان ينتظر من السماء رحمة الآلهة كلما ألمت به مصيبة أو كارثة، وهو بذلك يكون قد استعاض عن القدر بقدر آخر.

وعليه فلا ضير في أن نحث زعماء العالم الثالث على توخي الحذر لأن اقتصادياتهم هشة أكثر من غيرها، في خضم التحمس الزائد للاقتصاد الليبرالي الذي يتميز بحالة من عدم الاستقرار. و حتى سنة 1936، ومع صدور كتاب **النظرية العامة للشغل والفائدة والنقد** للعالم الاقتصادي الأمريكي Keynes، كنا نعتقد أن الإنتاج وتوفير الشغل لكافة اليد العاملة يتحققان على مدى طويل. رأينا أيضا مع Keynes أن التشغيل الدوني يمكن أن يتحقق على مدى أطول.

إن الاقتصاد العالمي، وخاصة اقتصاد العالم الثالث يجب أن يدخل القرن الواحد والعشرين على قواعد سليمة وصلبة. و لن تسمح الإنسانية منذ اليوم بإغراق السوق العالمية بما هب ودب من السلع، على مرأى ومسمع من السياسيين الفاسدين والمرتشين. ولن تسمح الإنسانية أيضا بالعيش في حرب اقتصادية يسيطر فيها قانون العرض والطلب البدائي. على الاقتصاد العالمي توسيع بناه وتوفير العوامل التي من شأنها أن تدفع البشرية للعيش في انسجام مع نفسها أولا ومع بيئتها ثانيا.

الفقرة الثالثة: المستوى التعليمي كمؤشر كوني للتنمية.

رأينا في الفقرات السابقة أن الظاهرة العالمثالثية التي انطلقت من انجلترا في القرن التاسع عشر مرحلة سابقة للتصنيع، إنها مرحلة انتقالية بين المرحلة التقليدية والمرحلة الصناعية أو ما بعد الصناعية. لكن كيف تمت هذه المرحلة لانتقالية؟ وما الذي يجب القيام به لمحو مظاهرها المأساوية مثل التكاثر السكاني والفقر والبناء العشوائي والتطرف بشتى أنواعه؟ كيف يمكن لهذه المرحلة الانتقالية أن تنتشر بأقصى سرعة حتى يتسنى لدول الجنوب الانفلات من الأزمات، التي عرفتها دول الشمال خلال القرن التاسع عشر، والتي تتمثل في الهجرة المكثفة والحروب المدمرة؟ باختصار شديد، كيف يمكن اقتلاع شبح العالم الثالث من جذوره.

نعتقد مثل الكثيرين أن انجلترا– وبعدها أوروبا– تمكنت من اجتياز المرحلة العالمثالثية وتثبيت ساكنتها وتنمية قدراتها الاقتصادية بفضل التعليم ودمقرطة التكوين، بدء من السلك الابتدائي ووصولا إلى الجامعة.

استطاعت العقليات التكيف مع الواقع الصناعي الجديد والتأقلم مع الظروف الطبية والعمرانية والاجتماعية الجديدة بفضل التربية المدرسية.

إذا كانت العقليات في دول الشمال لا تزال قاصرة، فلأن مختلف النظم التربوية لا تزال مشوبة هي أيضا بالقصور. إن عبقرية جون جاك روسو الذي وعى أكثر من غيره أزمات عصره قبيل القرن التاسع عشر، تضفي على كتاباته الاجتماعية والتربوية طابعا متميزا. وأعماله **خطاب حول الأصل** (...) و **اللامساواة** و **العقد الاجتماعي** أثرت بشكل كبير في مفكري القرن التاسع عشر أمثال ماركس، ولكن كتاب روسو الذي يحمل عنوان **إميل** (Emile) يعد مؤلفا قيما هيأ الأرضية لظهور مدرسة بيداغوجية يعتبر Pestalozzi و Probel و Herbart من أهم مؤسسيها.

وبموازاة الصخب الكبير الذي أحدثته النظريات الثورية الاشتراكية والشيوعية، انطلقت ثورة أخرى بيداغوجية أقرت التعليم الإجباري والمجاني لفائدة معظم البلدان الأوروبية.

لقد تجاهل ماركس ومعه مالتوس تأثير هذه الثورة البيداغوجية على التطورات الديمغرافية والسياسية. ويؤكد T.W. Schultz، الحائز على جائز نوبل أن Ricardo لم يستطع التنبؤ بأن البحث الزراعي يمكنه اكتشاف بدائل عن الأراضي القابلة للحراثة، مما يجعل نظرية "الدخل" التي وضعها أقل إقناعا.

يعتقد A. Landry. كما رأينا في الفقرات السابقة أن الحركة السكانية تتميز بمرحلتين: تتسم المرحلة الأولى بالنمو الديمغرافي أي ببساطة أن الناس ينجبون الكثير من الأطفال، لكن هؤلاء يموتون بنسب أقل بفضل التقدم الحديث في ميدان الطب.

أما المرحلة الثانية، فتعرف تثبيتا ديموغرافيا بمعنى أن الناس ينجبون أقل عدد من الأطفال ز "بشكل عفوي" على حد قول G.Bouthoul وتمر هذه المرحلة الثانية، في اعتقادنا، بفضل ارتفاع مستوى التربية، لأن التعليم يؤثر بشكل ملموس في التصنيع وحتى في أمد الحياة الذي تمدد بفعل ارتفاع معدلات التمدرس.

إن الازدواجية التي تعد الميزة الكبرى لشعوب الجنوب، تعتبر مظهرا للتمييز بين فئتين اجتماعيتين حسب المستوى التربوي لكل فئة. الفئة الأولى أقلية تمثل القطاع الحديث وتتكون من ساكنة متعلمة من رجال الصناعة والأساتذة والأطباء... أما الفئة الثانية، فهي أغلبية مكونة من ساكنة أمية من الفلاحين والحرفيين الصغار، وتمثل القطاع التقليدي.

لأسباب متعددة، يطرح مشكل الازدواجية داخل الأسرة الواحدة، بل أحيانا بين أخوين شقيقين. الأول أمي ينجب أكثر من أخيه المتعلم، ويصبح أقل منه ثروة وكفاءة ومرونة و إنتاجا، ويعمر قليلا لأنه لا يعرف كيف يحافظ على صحته التي يفينها في رعاية وإعالة عدد كثير من الأطفال. ولكن الأخطر من ذلك، هو أن هذا الأخ الأمي يعيد إنتاج النماذج الأمية على شاكلته، لأنه، وبكل بساطة، لا يملك الإمكانات المادية لتعليم صغاره. وهكذا يصبح أطفال الأمي أكثر عددا وأشد أمية من أبناء عمهم، وسوف ينجبون بدورهم أطفالا كثر سيتحولون إلى أميين، وهكذا دواليك. إن الساكنة الأمية المتمثلة في القطاع التقليدي تنمو بشكل مذهل لتصبح أكثر عددا من مثيلاتها في القطاع العصري، والتي تتزايد وفق وثيرة متوازنة.

بهذا الشكل تصبح ساكنة دول الجنوب أكثر حجما من نظيرتها في دول الشمال. وهذا ما نطلق عليه في ميدان التنمية "الحلقة المفرغة للتخلف"، تلك الحلقة التي لا يمكن تكسيرها إلا بالتمدرس. إن التعجيل بتعليم الملايير من البشر، في وقت وجيز، يعتبر تحديا تاريخيا يجب على البشرية أن ترفعه. و عليه فالقرن الواحد و العشرون يجب أن يكون قرن التربية والتعليم بامتياز.

كيف يمكن للبشرية إذن أن تتمكن من تعليم ملايير الناس وإنجاز مخططات ضخمة للتنظيم الأسري في وقت قياسي ؟ تعد هذه المهمة إحدى أهم التحديات التاريخية التي يمكن كسب رهانها بتظافر جهود كل بلدان العالم.

إن هذه المهمة لن تكون بالطبع سهلة، إذا نظرنا إلى ما تعانيه التربية من علل في دول الشمال، حيث تحولت المؤسسات التعليمية إلى أوكار للجريمة المنظمة.

حسب لجنة خبراء التربية في أمريكا، يأتي مائة ألف تلميذ يوميا إلى الثانويات حاملين مسدسات وسكاكين. وطبقا لدراسة قامت بها الجمعية الوطنية لعلماء النفس الأمريكيين، يتعرض الأساتذة للآلاف من التهديدات والاعتداءات في الساعة الواحدة فقط.

في نيويورك، وعلى الرغم من مصادرة رجال الشرطة الفيدرالية للآلاف من قطع السلاح في السنة، فإن العنف المدرسي يبقى مخيفا، ويسمع دوي العيارات النارية عشرات المرات في المدارس حيث يلقى العديد من المدرسين والتلاميذ حتفهم.

في هذا المناخ الغريب، الذي يحاول فيه الطفل فهم العالم من حوله، يجد هذا الأخير نفسه أمام الصورة القاتمة لمجتمع مبهم. تعتبر المدرسة الأداة الأساسية للحضارة، وإذا كانت هذه الأداة معطلة يجب إصلاحها وترميمها قبل الإقدام على أي خطوة أخرى. ومع ذلك تنوي بعض الحكومات الغربية التخفيض من ميزانيات التعليم الحكومي خاصة في زمن العولمة الاقتصادية.

أدت التربية الحديثة المهووسة بالتخصص والحريصة على الاستجابة للحاجيات الاقتصادية إلى إقصاء مفهوم الثقافة الموسوعية. و أصبحت المدرسة تكون أجيالا من المتخصصين الجهابذة والجهلة في آن واحد إنهم جهلة القرن الواحد والعشرين. سوف نعود للحديث عن هذه النقطة فيما بعد.

من جهة أخرى عندما تداهم الأزمة بلدان الشمال والجنوب على حد سواء فإن الجميع يفقد صوابه فيرتكب أخطاء فادحة. لهذا يجد صناع القرار أنفسهم مجبرين على تعزيز البنى التربوية وتمتينها بغية الحد من الأزمات الاقتصادية و الاجتماعية المتلاحقة.

يتخبط العالم الصناعي في هيستيريا الأزمات والبطالة، ولكن لا داعي للقلق والتهويل، فالأزمة والبطالة مرتبطتان ارتباطا وثيقا بتنظيم حياة الإنسان منذ الأزل.

في المجتمع التقليدي كانت ندرة المحصول، في بعض السنوات، تنعكس سلبا على كل الأنشطة المتعلقة به. على سبيل المثال، كان المحصول الضعيف للزيتون يفرز "الأزمة والبطالة" في قطاع إنتاج الزيتون وزيت الزيتون. و لكن علينا أن نتذكر أن ما يتفرد به العصر الصناعي، كما رأينا سلفا، هو سرعة وضخامة مثل هذه الظواهر التي عاشها الإنسان في السابق، وتعايش معها دون أن تشكل لديه مصدر قلق كبير.

في الوقت الذي يفتخر فيه العالم الصناعي بامتلاكه لبنى قوية تقيه شر الجوع ومآسيه، ينزعج في الوقت ذاته من الضخامة المهولة لهذه البنى. لقد اتخذت الأزمات طابعا نفسيا واستحوذ الفزع الفظيع على الإنسان، الذي وجد أمامه نظاما بالغ التعقيد لم تنفعه لمواجهته سوى الأقراص المسكنة وشتى أنواع المخدرات .

أ ـ التـربيـة عبـر التـــاريـخ :

صارت التربية أكثر ميادين الحياة استنفادا للميزانيات. منذ الثورة الصناعية، تعقدت "البنى الحياتية" للإنسان في كل المجالات الاقتصادية والتكنولوجية والفنية... بشكل جعل المعرفة واكتسابها يحتلان مرتبة مهمة في وجدان الإنسان. ولولا التنظيم الهائل للتربية، لما بقيت الحضارة الصناعية قائمة الأركان. إن للتربية ماض غنيا وتاريخا مجيدا. لقد وضعت الحضارات الأوروبية والأمريكية والأسيوية والإفريقية السابقة أنظمة تربوية متطورة تدفعنا للجزم بأن جوهر كل مجتمع بشري يكمن

في التربية لما تحويه هذه الأخيرة من معارف متنوعة تتوارثها الأجيال. "الإنسان ابن بيئته" هذا قول يردده الناس بين الفينة والأخرى. فالبدويون الذين ترعرعوا في الصحراء وتربوا فيها سيجدون لا محالة صعوبة بالغة للعيش في القطب الشمالي. إن كل إنسان زج به في بيئة لم يهيأ لها، فسيكون مصيره الموت. وعليه فشعوب الجنوب التي ألقي بها داخل عالم التصنيع الذي لم تعد له سيحكم عليها بالموت البطيء.

ترتبط التربية ارتباطا وثيقا بالمجتمعات البشرية. في أول الأمر تكون داخل الأسرة والعشيرة طارئة على حد تعبير Paul Goodman، وبعد ذلك تصبح على شكل مؤسسات مستقلة. في هذا الاتجاه، كانت «البوليسا اليونانية» (La polis)، حسب Goodman، تضم مجموعة من المؤسسات التي تضطلع بالوظيفة التربوية. يعرف John Dewey أهمية هذه الوظيفة بقوله: «يكمن جوهر الفلسفة برمتها في فلسفة التربية التي تتمثل في كيفية بناء العالم». طورت المجتمعات البدائية الأشكال الأولى للتربية التي كانت حسب الزعيم الافريقي Julius Nyerere تنتشر داخل «مدرسة الحياة والخبرة، حيث كان كل شخص راشد يعتبر معلما».

لإلقاء المزيد من الضوء على الأهمية التربوية الراشد، علينا الإنصات إلى كلود ليفي ستراوس، الذي يقول، في كتابه **عرق وتاريخ:** «نقرأ في العديد من كتب علم الإناسة، أن الإنسان مدين لصدفة الصاعقة أو حرائق الغابات بمعرفة النار، وأن اكتشاف طريدة مشوية مصادفة في مثل تلك الظروف، أوحت له بطهي الأطعمة، وأن اختراع الخزف ناتج عن نسيان كرية طين بجانب موقد نار. وكأن الإنسان قد عاش، في البدء، في عصر ذهبي تكنولوجي تقطف فيه الاختراعات بسهولة، تشبه جني الفواكه والزهور، أما الإنسان الحديث فحسبه مشقة العمل و وحي العبقرية». ينتقد ليفي ستراوس وجهة النظر هذه ويسترسل: «إن هذه النظرة الساذجة ناتجة عن جهل تام يتعقد وتنوع العمليات التي تدخل في تلك التقنيات الأولية للإنسان البدائي. لصناعة أداة فعالة من الحجارة، لا يكفي فقط الضرب على حجر حتى يتفتت. لقد فهمنا ذلك عندما حاولنا ذات يوم إعادة صناعة أهم أدوات العصر الحجري. بمعاينة نفس التقنية، التي لا تزال بعض الشعوب البدائية تستعملها حتى اليوم، تمكننا من اكتشاف تعقد التقنيات الضرورية التي قد تصل أحيانا إلى الصنع القبلي لآلات حقيقية مثل المطارق وكابحات الاهتزازات. توصلنا أيضا إلى أن المرء يحتاج إلى ترسانة من المفاهيم حول الأصل المحلي، وتقنيات الاستخراج، وبنية المواد المستعملة، والتمارين

العضلية المناسبة والمهارات اليدوية ... الخ. و باختصار يجد الإنسان نفسه في حاجة إلى قاموس خاص من المصطلحات التي تهم صناعة التعدين».

هكذا يبقى المسار نفسه، أي أن المهارات تنتقل وتتطور من جيل إلى آخر. في المجتمعات البدائية، التي كانت تضم عددا محدودا من الأفراد، تنتقل المهارة شفهيا، داخل الأسرة أو العشيرة أو القبيلة. و كلما تجمعت هذه القبائل المتباعدة والمعزولة عن بعضها البعض، على شكل المهارات حتى تصبح مركبة ومعقدة، الشيء الذي يحتم ظهور مؤسسات تحتضنها وأنشطة تنميها.

كان لظهور الكتابة، وبعده، لاكتشاف الطباعة في المدن، أثر بالغ في تنظيم التربية وإنشاء المدارس، ذلك أن الكتابة والحضارة تعتبران وليدتا المجتمعات المتمدنة.

ولقد كان للعلاقات السلطوية بين المدرسين والتلاميذ أثر سلبي أدى إلى الانتقاص من قيمة التربية داخل المجتمع. عندما يصبح المدرس في مجتمع متمدن عرضة للسخرية و الازدراء فهذا يعني ببساطة أن المجتمع يفتقر إلى أدنى مقومات التحضر.

كانت المدرسة في **الحضارات المصرية واليونانية والرومانية** محط تقدير واحترام، لأنها كانت تشرف على تكوين أبناء الطبقة الأرستقراطية وتربيتهم تربية بدنية وفكرية وفنية راقية. أما **الهند** فكان لها فضل السبق في إنشاء أولى الجامعات في العالم، وهي الجامعات البراهمانية، التي كانت تدرس فيها الفلسفة والرياضيات والتاريخ وعلم الفلك ...الخ.

في **الصين**، كانت تربية كبار الموظفين والأعيان مرتبطة إلى حد كبير بأجهزة الدولة التي لم تعرف الانفتاح– كما كان الحال بالنسبة لليابان– على التعليم الغربي، الذي كان يحضر للعصر الصناعي.

في **أوروبا القروسطية**، كانت التربية من اختصاص الكنيسة، التي كانت تراقب البنى الإقطاعية للمجتمع. عرفت الجامعات القروسطية، التي استلهمت الكثير من التربية العربية الإسلامية، ازدهارا كبيرا خاصة في المدن التجارية الغنية حيث تتمركز البورجوازية الناشئة. حث **الإسلام** المؤمنين على التعلم من «المهد إلى اللحد». والتربية الإسلامية، التي شكلت عنصرا حاسما في الحضارة العربية الراقية و الممتدة إلى الأندلس غربا، عرفت انكماشا تحت ضغط السلطة

الدينية ذات النفوذ الواسع، والتي كانت تعتبر تدريس بعض المواد العلمية ضربا من ضروب الردة والكفر.

عمم **العصر الصناعي** التربية على كل طبقات المجتمع بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ، إنها البداية الحقيقية لدمقرطة التعليم. أقرت القوانين المشرعة في أوروبا مبدأ "التعليم العام والمجاني". أما **الاستعمار الأوروبي**، فلم يكن على العكس يكترث لتعليم "الأهالي" وتكوينهم. وكان ذلك خطأ فادحا من السهل ارتكابه، إذا نظرنا في الحقيقة إلى الممانعة الثقافية والدينية والقومية الشرسة للسكان المحليين، وهذا ما يفسر من جهة امتداد المرحلة "العالمثالثية" التي يعيشها الشق الجنوبي من الكرة الأرضية والتي تدفع الخبراء إلى دق ناقوس الخطر.

تبعث وضعية التعليم **في العالم**، في الوقت الراهن على الكثير من القلق. في الولايات المتحدة الأمريكية، تشير بعض الدراسات إلى أن 20 بالمائة من السكان أميون. وفي أثيوبيا، يعترف المسئولون بعجزهم عن توفير التمدرس لكافة السكان، ويتمتع 18 بالمائة فقط من الشباب الإفريقي الأسود بمستوى دراسي ثانوي. و هذه النسبة لم تكن سنة 1960 سوى 4 بالمائة، ولكن بمثل هذه الوثيرة ستكون إفريقيا السوداء مجبرة على الانتظار قرنين كاملين حتى يتسنى لها توفير التعليم الثانوي لجميع أبنائها. وإلى أن يحين ذلك الوقت، ستجد إفريقيا، ذات المعدلات الديموغرافية الكارثية، نفسها مثقلة بالملايير من الأميين. ولكن بالاعتماد على التعليم واستثمار الرأسمال البشري، سيكون باستطاعة إفريقيا التخفيض من معدلات نموها السكاني. يؤكد M.Edgar Faure، نقلا عن دراسة أنجزها مكتب الإحصاءات باليونسكو، أن نسبة الأشخاص الذين تزيد أعمارهم عن 15 سنة ولم يلتحقوا بالمدرسة، تفوق 5 في المائة في العالم خلال كل عقد من الزمن.

ب – معـدل التمدرس كمؤشر وحيـد للتنميـة:

إذا أردنا اختزال كل مؤشرات التنمية في مؤشر واحد هو معدل التمدرس، الذي يعنـي نسبة الأشخاص الذين تفوق أعمارهم 15 سنة، فلأن كل تلك المؤشرات الأخرى ترتبط ارتباطا وثيقا بذلك المعدل المذكور.

لاحظنا أن مظاهر «العالمثالثية» تطفو حيث يكون معدل التمدرس متدنيا، ولا تستثنى من ذلك الدول الأكثر تقدما. لاحظنا أيضا أنه كلما تعمم محو الأمية و التمدرس، كلما تراجع التزايد السكاني وارتفعت التنمية الاقتصادية. ونقصد بالتنمية الاقتصادية تنمية القطاع العصري برمته، انطلاقا من رفع معدل التصنيع، ومرورا بالدمقرطة السياسية ووصولا بتمديد مؤمل الحياة عند الولادة. وهذا ما يدفعنا إلى صياغة هذه الظاهرة على شكل قانون :

يتناسب معدل التمدرس بشكل مطرد مع معدل التنمية الاقتصادية، وبشكل معكوس مع معدل النمو الديمغرافي.

إذا اقتصرنا في هذه القاعدة على التنمية الاقتصادية بمفردها و على العالم الثالث فقط فلأن نمط الحياة الصناعي الليبرالي تعتريه نقائص كبيرة على المستوى البشري والاجتماعي والبيئي يصعب معها الحديث عن التنمية بشكل مطلق.

إن ما نود توضيحه وبشكل بسيط هو انه كلما أتقن السكان القراءة والكتابة كلما كان لديهم اهتمام بالتخطيط العائلي، وكلما ساهموا بفعالية في تنمية قطاعاتهم الاقتصادية.

ولمعرفة مدى ارتفاع أو ضعف معدل ما وضعنا معالم (repères) لا يجب التعامل معها حرفيا.بعد ذلك أنجزنا جدولا تقريبيا لهذه المعالم لا يرتكز على دراسة علمية دقيقة ولكنه يمكن على الأقل من متابعة الميول التي يتخذها كل بلد على حدة.

جـدول المعـالــم

نسبة التمدرس			
ضعيفة	متوسطة	مرتفعة	مرتفعة جدا
ناقص 40 بالمائة	40 إلى65 بالمائة	65 إلى 85 بالمائة	85 إلى 100بالمائة

مؤمل الحياة عند الولادة			
ضعيف	متوسط	مرتفع	مرتفع جدا
ناقص 58 سنة	من58 إلى62 سنة	من 62 إلى 68 سنة	أكثر من 68 سنة

نسبة الساكنة النشيطة في القطاع الصناعي			
ضعيفة	متوسطة	مرتفعة	مرتفعة جدا
ناقص 10 بالمائة	من 10 إلى 15 بالمائة	من 15 إلى 20 بالمائة	أكثر من 20 بالمائة

نسبة النمو الديمغرافي

ضعيفة	متوسطة	مرتفعة	مرتفعة جدا
ناقص 1.5 بالمائة	من 1.5 إلى 2.5 بالمائة	من 2.5 إلى 3.5 بالمائة	أكثر من 3.5 بالمائة

إن حلم كل دولة هو أن تبقى على مشارف معدلات من شأنها تحقيق توازن ديمغرافي و اجتماعي و اقتصادي و بيئية.المهم بالنسبة لأي بلد هو أن يتحكم في نموه الديمغرافي بتسريعه أو إيقافه حسب حاجاته و ظروفه.

لقد قمنا بتطبيق هذه المعالم على مجموعة من البلدان و تأكدنا من صحة هذا القانون.سوف يجد القارئ في نهاية الكتاب ملحقا يضم ما يقارب ثلاثين حالة لدول من مختلف القارات.سنكتفي في هذه الفقرة بذكر بعض النماذج المثيرة الاهتمام.

يصل معدل التمدرس في **ألمانيا** إلى 100 بالمائة، وهذا حسب الجدول الذي أنجزناه معدل مرتفع جدا. كما تتوفر هذه الدولة على نسبة 27 بالمائة من السكان النشيطين العاملين في الصناعة ومعدل نمو سكاني ضعيف لا يتعدى ناقص 0,2 بالمائة، ومؤمل حياة مرتفع جدا يفوق 72,1 سنة عند الرجال.

تماشيا مع جدولنا، يتوفر **البرازيل** الذي يعتبر معدل التمدرس فيه مرتفعا بنسبة 73 بالمائة على معدل تصنيع مرتفع يصل إلى 16,2 بالمائة، ومؤمل حياة مرتفع أيضا يقدر بنحو 62,3 سنة لدى الرجال وكذا على معدل نمو سكاني متوسط يساوي 2 بالمائة. ويعد **البرازيل**، الذي يصنف عادة ضمن الدول المصنعة حديثا دولة ثالثية بامتياز. ويتميز هذا البلد بطابع مزدوج لأن أقلية ساكنته مصنعة جدا بينما أغلبيتها مهمشة.

ويزدحم الملايين من البرازيليين في مدينة ريوديجانيرو، داخل مدن الصفيح المعروفة "بالفافيلات" (Favelas). ويتردد الملايين من السكان الفقراء على مدن الشمال الشرقي لتعاطي الدعارة وتناول المخدرات والتهريب بشتى أشكاله.

ويتعرض الأطفال الذين يفرون من بؤس "الفافيلات"، والذين يقصدون الأحياء الراقية للاغتيالات الجماعية من طرف ميليشيات اليمين المتطرف. وإننا نخاف بصراحة أن تتخذ هذه

الفظاعات التي تمثل شبح العالم الثالث أبعادا كونية. وإن من شأن هذا الشبح المرعب أن يفقد الإنسانية نظرتها المطمئنة إلى المستقبل أو يزج بها في متاهات التوترات الاجتماعية والعرقية المميتة. اعتمادا على مصادره الغنية، يراهن البرازيل على التصنيع على الرغم من فشل سياسته الاجتماعية وثقل ديونه الخارجية.

في إطار مشاريعه البنيوية للمطابقة، والتي تعد، في الواقع، مشاريع تصفية لأرصدة الدول العاجزة عن تسديد ديونها، يقترح صندوق النقد الدولي على البرازيل تخفيض نفقاته العمومية. ومع الأسف الشديد، بدل أن تدخل الدولة محو الأمية والتمدرس ضمن أولوياتها السياسية، نراها تقصيها إلى آفاق مجهولة.

تسجل **الصين** معدل تمدرس مرتفع بنسبة 72,6 بالمائة، وتتوفر استنادا إلى جدولنا على معدل تصنيع مرتفع يبلغ 16,9 بالمائة، ومؤمل حياة مرتفع أيضا يناهز 66,4 سنة لدى الرجال، وكذا على معدل نمو سكاني متوسط حدد في 1,9 بالمائة سنة 1985. كان هذا المعدل الأخير يقدر سنة 1950 بنسبة 3,99 بالمائة، تراجعت عام 1988 إلى 1,3 بالمائة. وهذا التراجع لا يبقى هذه النسبة منسجمة مع جدولنا، ولكن ذلك لا يمكن أن نعزوه فقط إلى الرفع من المستوى التربوي ولكن أيضا إلى الإجراءات العظيمة التي اتخذتها الدولة في مجال الولادات.

إن سياسة **الصين** الإنجابية والتي يجب أن تتبناها في نظرنا كل دولة تجتاز المرحلة العالمثالثية، كانت مرحلية و مؤقتة لأن الحكومة الصينية تخلت عنها فيما بعد بمجرد ارتفاع مستواها التربوي على غرار ما حدث في اليابان.ذلك أن المرأة الصينية قررت من تلقاء نفسها الاكتفاء بطفل واحد حتى تتفرغ للعمل خارج البيت ولمزاولة أنشطة أكثر تحررا. يعكس أنموذج الصين بجلاء نظريات الاقتصاد الأمريكي الشهير روستو الذي يشترط تحقيق نسبة نمو اقتصادي لا تقل عن 5 بالمائة لبلوغ مرحلة الإقلاع الاقتصادي. و من الواضح أن الصين قد تجاوزت بكثير هذا السقف. لكن يظهر أن روستو أغفل دور التخطيط العائلي و التمدرس في تحقيق الإقلاع.

لا نخفي في واقع الأمر قلقنا من أن تتخلى الصين مبكرا عن برامج التخطيط العائلي وعن الليبرالية الاقتصادية لترتمي في غياهب اقتصاد السوق والتصنيع المتوحش الذي اغرق العالم ببضائعه التي تفتقر في غالب الأحيان إلى الجودة.

نتمنى أن تسلك الصين سبيل الحكمة حتى تصبح « القوة البيئية الأولى في العالم ».

أما **كوريا الجنوبية** فتتوفر حسب جدولنا على نسبتي تمدرس و تصنيع مرتفعتين جدا وعلى مؤمل حياة مرتفع عند الولادة وكذا على نسبة نمو ديموغرافي ضعيفة.و على الرغم من مديونيتها الثقيلة تعتمد الدولة على ساكنة نشيطة لا يتجاوز عمرها 25 سنة تقدر ب 90 بالمائة من مجموع السكان.

وتضم **كوريا الجنوبية** 1340.381 طالبا بينما تتوفر جارتها الشمالية على 417.000 فقط أي أقل من الأولى بأربع مرات. ويقل عدد تلاميذها عن الجارة الجنوبية في ميدان التعليم المهني بحوالي خمس مرات، الشيء الذي يفسر ارتفاع معدل نموها السكاني وضعف نموها الاقتصادي.

في **كوبا** التي تتوفر على معدل تمدرس مرتفع جدا يناهز 91,6 بالمائة، يسجل معدل التصنيع نسبة مرتفعة جدا (22,3 بالمائة) كما يصل مؤمل الحياة عند الولادة 72,6 سنة لدى الرجال. ويشهد معدل النمو السكاني على العكس انخفاضا يصل إلى 1,0 بالمائة. وهكذا تعتبر حصيلة التنمية الكوبية في عهد فديل كاسترو إيجابية على الرغم من المصاعب التي تمر بها **كوبا** التي بقيت لعقود طويلة سجينة ولائها للاتحاد السوفيتي السابق.

تتشكل **الولايات المتحدة الأمريكية** من مجموعتين بشريتين مهمتين: البيض ويمثلون 84,8 بالمائة من مجموع السكان والسود ويشكلون أقلية بنسبة 12,2 بالمائة. يعتبر معدل التمدرس في **الولايات المتحدة** مرتفعا جدا (95,5 بالمائة). لكن بعض الدراسات توضح أن هذا المعدل في الحقيقة لا يتجاوز 80 بالمائة الأمر الذي لا يفاجئ أحدا ونحن نرجح أن يكون السكان السود ضحية هذه النسبة المتدنية في دولة عملاقة يعد معدل نموها السكاني ضعيفا بنحو 0,6 بالمائة. وطبقا لتحليلنا يفوق معدل التصنيع في بلد "العم سام" 20 بالمائة. أما فيما يخص مؤمل الحياة عند الولادة فتقدم لنا Atlas-Eco مؤملين، أبيض وأسود: 72,0 سنة بالنسبة للرجال البيض و 78,9 سنة لدى نسائهم، ثم 65,5 سنة في صفوف الرجال السود و 73,9 عاما بالنسبة للنساء.

من خلال هذه الأرقام يلاحظ أن جدول المعالم يعطينا فيما يتعلق بالمجموعة السوداء معدل نمو سكاني متوسط ينحصر بين 1,5 و 2,5 بالمائة ومعدل تصنيع مرتفع منحصر بين 15 و 20 بالمائة من السكان النشيطين العاملين في الصناعة، وكذا معدل تمدرس مرتفع يتأرجح بين 65 و 85 بالمائة.

أما المجموعة البيضاء، فمعدل نموها السكاني ضعيف ويسجل 1,5 بالمائة حسب جدولنا (وإذا افترضنا أن معدل نمو المجموعة السوداء يصل إلى 1,5 بالمائة وأخذنا بعين الاعتبار المتوسط الوطني البالغ 0,6 بالمائة، فإن معدل نمو المجموعة البيضاء يفترض ألا يتجاوز 0,2 بالمائة). كما يسجل معدل تصنيعها ارتفاعا كبيرا يقدر بنحو 20 بالمائة من الساكنة النشيطة العاملة في الصناعة، في حين يصل معدل التمدرس في أوساط هذه المجموعة، إلى 85 بالمائة.

إن مشكلة المجموعة السوداء في الولايات المتحدة شبيهة، إلى حد بعيد، بمشكلة المجموعات المهاجرة والمقيمة بمعظم الدول الصناعية، إنها مشكلة مجموعتين بشريتين تعيشان على نفس الأراضي، الأولى تتمركز في المرحلة الصناعية، والثانية لا تزال منغمسة في «المرحلة العالمثالثية». هنا يجب التفكير الجاد ومضاعفة الجهود للرفع من المستوى التربوي للمجموعتين السوداء والمهاجرة حتى تتمكنا من الاندماج والانصهار الإيجابي داخل المجموعات الأخرى.

ارتكب البيض في **الولايات المتحدة** ذات الخطأ الذي ارتكبته القوى الاستعمارية سابقا في حق مستعمراتها بحرمانها من التعلم. انفجرت المظاهرات الاحتجاجية في أمريكا بسبب منع أول طالبة سوداء من ولوج الجامعة، لكن جون فرجيرالد كيندي، الذي كان في ذلك الوقت رئيسا للبلاد كلف عناصر من الشرطة الفيدرالية لحماية الطالبة الشابة.

لا تزال المظاهرات الصاخبة إلى يومنا هذا تجتاح بعض المدن الأمريكية، وقد وجدت بعض الأحداث الدامية صداها في السينما التي أرخت بصورها الساحرة للواقع المؤلم لأوساط السود الأمريكيين الذين يضمرون الحقد للآخرين بل ولأنفسهم أيضا، لأنهم لا "يفهمون" المجتمع الذي يعيشون فيه. إنهم أناس حرموا التربية والتعليم اللذين من شأنهما أن ينيرا طريقهم ويضيئا حياتهم. حاليا تتعامل المجموعات السوداء والبيضاء مع المسألة التعليمية بنوع من اللامبالاة، وهي على العكس مطالبة اليوم أكثر من ذي قبل بتكثيف جهودها قصد تدارك أخطاء الماضي. تعتبر هذه الوضعية بالنسبة للأقليات التي تشبه المجموعة السوداء الأمريكية أشد فظاعة من الحلول النازية، لأن هذه الأخيرة تكون على الأقل سريعة ونهائية بينما يطول أمد الأولى لتصبح عذابا سرمديا يكابده السود والبيض على حد سواء.

لا تختلف هذه الإشكالية عما في إفريقيا الجنوبية حيث تشكل الساكنة البيضاء 18 في المائة والسوداء 68 في المائة، في حين تتوزع النسبة الباقية بين الأسيويين والملونين. ويتوفر

البيض على معدل محو أمية يصل إلى 95 في المائة، الشيء الذي يجعل نموهم السكاني ضعيفا، استنادا إلى جدولنا، أما السود، فمعدل محو الأمية لا يتجاوز، في أوساطهم، 32 في المائة، الأمر الذي ينتج عنه معدل نمو ديموغرافي مرتفع جدا، وهذا يعني أن المجموعة البيضاء سوف تجد نفسها قريبا مكتسحة من قبل السود، لذا على البيض الرفع من المستوى التعليمي لهؤلاء، إن هم أرادوا التعايش معهم في أمن وأمان.

إن البيض والسود يمثلان عالمين يفصل بينهما قرن ونصف من الزمن في قاموس التطور الصناعي. تتمركز المجموعة الأولى (البيض) في صلب المرحلة الصناعية، في حين تعيش المجموعة الثانية (السود) في «المرحلة العالمثالثية». إن تفاعل هاتين المجموعتين المتناقضتين لابد وأن تكون له عواقب وخيمة. في عام 1904 كانت جنوب إفريقيا تضم 1,2 مليون من البيض و 4 ملايين من السود. وفي سنة 1985 وصلت الساكنة البيضاء إلى 4,6 مليون نسمة والساكنة السوداء إلى 26 مليون نسمة، من أجل محو هذا الفرق الشاسع قام النظام العنصري بفرض وسائل منع الحمل على السكان السود وإجبار هؤلاء على تحديد نسلهم مع إهمال دور التعليم على الرغم من أن أفضل سياسة لتحديد النسل هي التربية. وسياسة الحد من التزايد الطبيعي مرتبطة أساسا بالمرحلة العالمثالثية التي لا تستطيع أي دولة الإدعاء بأنها تجاوزتها نهائيا لأن بعض الهيئات مثل المجموعة الدائمة لمحاربة الأمية (GPLI) في فرنسا تعتقد أن خمس الفرنسيين قد عانوا من مشاكل الأمية.

لا تختلف الأرقام كثيرا بالنسبة للبلدان المتقدمة الأخرى، هذا إذا اعتبرنا أن كل بلد يدعي تجاوزه للمرحلة العالمثالثية، فعليه أن يكون قد وفر التعليم لكل ساكنته. وبالتالي، إذا كان ثمة بلدا يفاخر بتحضره، فعليه أن يكون قد ضمن التعليم الجامعي لكافة مواطنيه.

تتوفر إسرائيل على معدلي تمدرس و تصنيع مرتفعين جدا يبلغ الأول 93,8 بالمائة و الثاني 23,7 بالمائة. ويصل مؤمل الحياة فيها الى 73,5 سنة، بينما يبلغ معدل النمو السكاني المتوسط ذي الميل الضعيف 1,6 بالمائة،الشيء الذي يفسره تشجيع الدولة للإنجاب تماشيا مع سياسة الاستيطان.

و للتذكير، تتشكل إسرائيل من مجموعتين بشريتين: اليهود و العرب. والحقيقة أننا نشعر ونحن نقول هذا بنوع من الحرج لأن مقابلة اليهود بالعرب فيه تعسف كثير، إذ ثمة عربا يهودا،

وعربا مسيحيين وآخرين مسلمين. في الضفة الغربية يصل معدل النمو السكاني الى 2,5 بالمائة، أما في قطاع غزة فيسجل 2,8 بالمائة، وهما معدلان مرتفعان ينسجمان مع معطيات جدولنا ويتوافقان مع معدلات التمدرس المتوسطة التي تنحصر بين 40 و 65 بالمائة.

تتكون التركيبة الإثنية لإسرائيل من 83 بالمائة من اليهود و 16 بالمائة من العرب. يبلغ معدل التمدرس بالنسبة للساكنة اليهودية 100 بالمائة ويصل معدل نموها الديموغرافي 1,3 بالمائة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار حصة اليهود الشرقيين مقارنة باليهود الغربيين فإننا سنجد أن معدل النمو السكاني لهؤلاء يقترب كثيرا من 0 بالمائة.

نود الحديث قليلا عن حالة إسرائيل بغية تفسير وجود هذه الأخيرة كدويلة مزدهرة وديمقراطية في منطقة تعاني الأزمات وتغيب فيها الديمقراطية. ولن نغفل بالطبع الإشارة إلى القوة العسكرية للدولة العبرية.

أبهرت إسرائيل العالم بالسرعة الفائقة التي حسمت بها حرب يونيو / حزيران 1967. أرجع الكثير من الخبراء هذا التفوق العسكري إلى المساعدات المعلنة للولايات المتحدة، أما بعض المحللين فربط التطور الاقتصادي لإسرائيل بالتعويضات الخيالية التي أجبرت ألمانيا الغربية سابقا على دفعها تكفيرا عما اقترفته يد النازية في حق اليهود إبان الحرب العالمية الثانية. يبدو هذا التأويل غير مقنع وإلا كيف نفسر معدل النمو السكاني الضعيف ومؤمل الحياة المرتفع وانفراد إسرائيل بامتلاك النظام الديمقراطي الوحيد في منطقة الشرق الأوسط؟ هذه في نظرنا معالم مهمة تعكس وضعية بلد ما سواء في مرحلة التصنيع أو في «المرحلة العالمثالثية». تقدم إسرائيل نموذجا مثيرا لدور التربية في تنمية البلدان ودور مختلف مستويات التعليم في الصراعات الاجتماعية.

نشأت دولة إسرائيل الحديثة عند نهاية القرن التاسع عشر. يرى Eli Barnawi في مؤلفه **تاريخ إسرائيل الحديث** أن أولى المستوطنات انطلقت من أوروبا بإيعاز من ثيو دور هرزل، ولم تكن إذن المجموعات اليهودية الأمية، التي كانت تقطن بشمال إفريقية أو إثيوبيا أو أي دولة ثالثية، هي المؤسسة الأولى للكيان العبري. ولكن الأوروبيين الحاملين لمستوى فكري عال و الوافدين على الشرق الأوسط، هم اللذين شكلوا النواة الرئيسية لإسرائيل. كان عدد هؤلاء في بداية القرن العشرين يناهز 110.000 نسمة، قاموا بتنظيم الفلاحة ومكننتها، فحققوا إنتاجا هائلا لم يعرف الشرق الأوسط برمته نظيرا له. مع قدوم الفوج الرابع من المهاجرين اليهود، ذوي الأصول البولاندية سنة 1920،

وضعت اللبنات الأولى للصناعة الإسرائيلية. وبمجيء الفوج الخامس (Alyia) في الثلاثينيات، التحق يهود أوروبا الشرقية، الفارين من المحرقة النازية، بالكيان الإسرائيلي وأعطوا للاقتصاد دفعة جديدة. في عام 1937، تم إحصاء ما لا يقل عن 6307 مقاولة تشغل ما يزيد عن 272000 عامل وموظف في صناعة النسيج والتعدين والمفاعلات النووية والصناعة الكيماوية (Palestine potash corporation / palestine Electric Corporation).

أدى قرار الأمم المتحدة الصادر في نونبر 1947 والقاضي بإنشاء دولة عربية بجوار دولة يهودية إلى تدفق موجات المهاجرين اليهود إلى فلسطين حتى أن عددهم وصل عام 1953 إلى 1670000 مهاجر.

استطاعت هذه الساكنة الأوروبية المؤهلة أن تقيم على أرض شبه جافة، وفقيرة من حيث المصادر المعدنية والموارد الطاقية والفلاحية، صناعة قوية وديموقراطية تعتبر نموذجا في المنطقة. هنا يجد السائل تفسيرا للانتصار العسكري الإسرائيلي عام 1967.

على غرار التوترات الاجتماعية، التي شهدتها الولايات المتحدة بسبب تركيبتها الاثنية، تعيش المجموعات البشرية المختلفة داخل إسرائيل مشاكل عديدة، يمكن تفسيرها بتباين مستويات التكوين. تعتبر المجموعات الشرقية القادمة من إفريقيا الشمالية والشرق، على حد قول Eli Barnawi، "أكثر ورعا وأشد تعلقا بتقاليد الأجداد، لذا فهي تعيش بعيدا عن التيارات الفكرية والإيديولوجية والاجتماعية والاقتصادية الكبرى" باختصار، ساهم قدوم هؤلاء "السافارديم" ذوي الثقافة المحدودة إلى خفض نسبة اليهود الغربيين "الأشكيناز" إلى 50 بالمائة من الساكنة. إن تعايش هاتين المجموعتين اللتين تتباينان من حيث المستويات التعليمية، سيقحم المجتمع الإسرائيلي في دوامة التوترات الاجتماعية والسياسية. يشبه ما يقدمه Eli Barnawi في كتابه المذكور آنفا العنصرية فيما بين اليهود أنفسهم، هذا دون الحديث عن العنصرية بين العرب واليهود.

تشبه معدلات **اليابان** إلى حد بعيد معدلات فرنسا: معدل تمدرس مرتفع جدا يبلغ 100 بالمائة ويجعل معدل التصنيع مرتفعا جدا بنسبة 24 بالمائة من الساكنة النشيطة ومؤمل الحياة مرتفعا أيضا بنحو 75,5 سنة في صفوف الرجال، وهي أعلى نسبة في العالم. وأخيرا يسجل معدل النمو الديمغرافي 0,4 بالمائة.

ويكمن الفرق بين **اليابان** وفرنسا في درجات قوتهما التكنولوجية والاقتصادية التي تترجمها لغة الأرقام. تفوق "إمبراطورية الشمس المشرقة" فرنسا من حيث الناتج الوطني الخام ومن حيث مؤمل الحياة عند الولادة بفارق أربع سنوات، ثم من حيث عدد الأسر التي تملك سيارة (87,7 بالمائة في اليابان و 72 بالمائة في فرنسا).

ساهمت عوامل تاريخية واجتماعية ونفسية في صياغة هذا التباين بين الدولتين، لكن التربية تبقى في اعتقادنا العامل والأداة الحاسمين. في عام 1980، كانت نسبة الساكنة الفرنسية التي تتراوح أعمارها بين 15 سنة وما فوق وتتوفر على مستوى تعليمي ثانوي تبلغ 9,2 بالمائة، بينما تزيد هذه النسبة في اليابان عن 38,0 بالمائة. وإذا كانت اليابان تخلو من المواد الأولية الضرورية وتفتقر إلى مصادر الطاقة التي تجد نفسها مجبرة على استيرادها من الخارج، فإنها تؤمن بأن الثروة الحقيقية تتمثل في القيمة المضافة الكبيرة التي يوفرها العمال المؤهلون.

إن نموذج اليابان يستحق منا المزيد من التفصيل لأنه يعبر بصدق عن جوهر دراستنا. كيف تمكنت اليابان إذن من أن تصبح قوة صناعية عملاقة؟

كيف تسنى لهذا البلد الأسيوي الصغير، في فترة وجيزة حرق المراحل والانتقال من المرحلة التقليدية إلى المرحلة الصناعية؟

تلوح بعض الأطروحات الساذجة بشعار العرق لتفسير هذه الظاهرة. ولكن من المنظور الاثنولوجي، ينحدر الشعب الياباني وهو شعب أسيوي حسب الموسوعة العالمية Universalis من مزيج إثني منغولي آت من كوريا وإندونيسيا.

من الناحية الثقافية تأثرت اليابان بجارتها الصين. إذن يفترض منطقيا أن تكون اليابان نسخة من جيرانها الأسيويين الذين ينحدرون من نفس "العرق"، بمعنى أن تكون دولة من العالم الثالث. ما الذي حدث إذن عند انطلاق «المرحلة العالمثالثية» في اليابان؟ وكيف اتخذت هذه الأخيرة مسارا مغايرا؟ نعتقد أن عبقرية الإمبراطور الذي حكم اليابان في "الحقبة الميجية" (عصر الأنوار = Meiji) ابتداء من سنة 1869 تتمثل في إدراك هذا الأخير بأن "قوة الدولة تكمن في حجم معارفها" وفي وعيه في ذلك العصر برقي العلوم الغربية وحتمية انتشارها في باقي بقاع المعمور.

وعلى خلاف الشعوب غير الأوروبية الأخرى التي قاومت الحضارة الغربية ونعتتها "بالإمبريالية الثقافية الغربية" نهلت اليابان وبإصرار شديد من المناهج التعليمية الغربية. وهكذا شهدت هذه الأخيرة ثورة "بيداغوجية" حقيقية. هل كان ذلك قرارا ناضجا ولده الوعي الجمعي لشعب وجد نفسه في مرحلة خاصة من تطوره التاريخي؟ أم هل كان ذلك من وحي عبقرية الإمبراطور Mitsu-Hito الذي أقبر بفضل إصلاحاته الجريئة قرنين ونصف من الإقطاع؟

تتحدث Francine Hérail في كتابها **تاريخ اليابان** عن "البنود الخمسة" التي شكلت تحت "الحكم الميجي"، النص–الأساس للإيديولوجيا التربوية. أما J.Mutel فكتب في **مجموعة التاريخ المعاصر**، أن بيان "البنود الخمسة" حول التربية يحث اليابانيين على طلب العلم في شتى أنحاء المعمور بهدف السمو بالنظام الإمبراطوري "الميجي".

وهكذا في سنة 1871، أنشأت الحكومة وزارة التربية، وفي عام 1872 أعلن عن "الغاكوسي" (Gakusei) الشهير، وهو عبارة عن مجموعة بنود تربوية، تمثل رمزا ثوريا لليابان الحديثة. يعلق G.Mialaret و Vial بقولهما:"لا نرى في هذه البنود دعوة إلى القومية، ولكنها على العكس تتسم بروح تقدمية منفتحة تبدي اهتماما شديدا بإدخال العلوم العصرية إلى اليابان كما عرفتها أوروبا والولايات المتحدة". قسمت اليابان إلى ثمانية قطاعات جامعية واثنين وثلاثين قطاعا ثانويا، ومائتين و عشرة قطاعات أولية. وحسب Mialaret و Vial، ولج المدرسة عام 1873 حوالي 4,24 بالمائة من الفتيات الصغيرات و 12,6 بالمائة من الفتيان الصغار. أما J.Mutel، فيقدم أرقاما مغايرة لنسب المتمدرسين: 17 بالمائة من الفتيات و 46 بالمائة من الفتيان. في عام 1890 أصدر "الكيوكشوكوغو" (Kyoikuchokougo) وهو المرسوم الإمبراطوري الخاص بالتربية، والذي اعتبره اليابانيون بمثابة عقيدة من عقائدهم، على حد قول Mialaret و Vial في مؤلفهما **تاريخ التربية العالمي**. أما الحكومة فقد جلبت العديد من الخبراء والأساتذة الغربيين وأنشأت نظاما تربويا نموذجيا على ضوء النظريات التي صاغها كبار علماء التربية الأوروبيين من أمثال Pestalozzi و Herbart و Fröbel. ومن جهة أخرى، قامت الحكومة، كما يقول Edwim O. Reishauer في كتابة **تاريخ اليابان**، بتشييد الآلاف من المدارس وتكوين عشرات الآلاف من المعلمين الجدد على امتداد عدة سنوات، مستعينة في ذلك بمواردها الطبيعية الضعيفة والقروض الأجنبية. وتوجت المجهودات الجبارة التي بذلتها الدولة بتمدرس جميع الأطفال اليابانيين منذ بداية القرن العشرين. في مسلسل انتقالها من

المرحلة التقليدية إلى المرحلة الصناعية كانت اليابان في مرحلتها العالمثالثية، متعلمة ومتنورة على عكس دول العالم الثالث المعاصر.

لتنمية الاقتصاد وتطويره، كانت الجامعات اليابانية تجود بنخبة من المسيرين من بينهم تقنيون وعمال مؤهلون الشيء الذي لا يتوفر اليوم لمعظم بلدان الجنوب والذي يفسر ارتفاع معدل البطالة في هذه الأخيرة. ولكن ما فائدة مهندس ذي مؤهلات عالية بدون قاعدة عريضة من التقنيين والعمال المؤهلين؟ وهل كان بمقدور عباقرة السيارات من أمثال "رونو" و "فورد" و "هوندا" بناء صروحهم الصناعة العملاقة بمعزل عن ترسانة من المهندسين وجحافل من الفنيين والعمال المتخصصين؟

ساهم تعميم التعليم في تكيف العقلية اليابانية مع المحيط الحديث و المتجدد، وساعدت "اليد الخفية الأخرى" على ملائمة التطور السكاني مع التقدم الطبي الأمر الذي نجم عنه تدني معدل الولادات من 46,4 بالمائة سنة 1900 إلى 36,2 بالمائة سنة 1920، ثم إلى 26,6 بالمائة في سنوات الثمانينات، هذا على الرغم من المجهودات الإنجابية التي بذلتها الطبقة اليابانية الحاكمة على خلفية أحلامها التوسعية والمحرضة على غزو الشعوب المجاورة.

مع بداية التسعينيات، قام العراق الذي أصيب بحمى العظمة بغزو الكويت، لكن اجتياحه لجيرانه لم يدم سوى بضعة أشهر، تحت ضغط تدخل تحالف دولي قادته الولايات المتحدة.

قبل التفكير في أحلامها التوسعية، سهرت **اليابان** على تعليم شعبها بدل إنفاق الأموال الطائلة في شراء أسلحة قد تتآكل سريعا في غياب فنيين متخصصين في الصيانة.

لكن ليست أحلام القوة العسكرية هي ما نرتضيه لدول العالم الثالث أو حتى لغيرها، لأنها لا تؤدي في حقيقة الأمر، سوى إلى تخريب المجال البيئي. وهدفنا ليس في الواقع فك لغز التفوق الياباني الباهر، بقدر ما هو استنباط الوسائل التي وظفها اليابانيون لاجتياز المرحلة العالمثالثية بسرعة وبراعة فائقتين.

إن **الصين** التي كانت طوال آلاف السنين مهد الفكر والحكمة لم تتمكن من تعليم مواطنيها حتى يتسنى لها الالتحاق، وفي الوقت المناسب، بالحضارة الصناعية. لقد أهملت الدولة التعليم وكانت الاختبارات انتقائية جدا لا تسمح بإعطاء نفس الحظوظ للجميع. في مثل هذا المناخ، الذي

غابت فيه الدمقرطة، كان صيني واحد فقط من بين 600 فرد يحصل على شهادة الباكالوريا. يعلق Bertrand Russel على دور التربية في المجتمع الصيني بقوله:"إن التعليم في حد ذاته ثروة أكيدة ولكنه ضروري لتطوير الوعي السياسي الذي تفتقر إليه الأرياف الصينية".

في ظل النظام الشيوعي لم تعرف القرى الصينية التي نفخ فيها الزعيم ماو تسي تونغ روحا جديدة، التمدرس إلا بشكل محدود، الشيء الذي منع الطاقة الثورية من التفاعل لتصبح طاقة اقتصادية وصناعية. ركز ماركس تحليله على إبراز علاقات القوة الاجتماعية ودور الملكية الخاصة في هذه العلاقات.

مع ذلك، عند بداية القرن العشرين، انهارت أقدم الإمبراطوريات في العالم لأسباب مغايرة، يشرحها Mialaret و Vial بقولهما :"إن تدهور نظام الامتحانات خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر يعتبر من بين الأسباب الحقيقة لثورة 1911". من المؤكد أن تدهور نظام الامتحانات يمكن النظر إليه كإشارة قوية على التدهور العام للتربية. بخصوص تلك الفترة، يضيف Chiang Monlin :"رفع التعليم الإجباري مستوى الساكنة، أكثر مما كانت عليه في الصين، وهنا يكمن السر الذي دفع اليابان إلى أن تصبح، في فترة وجيزة، قوة عالمية". وإذا استمرت اليابان اليوم في اعتلاء المكانة ذاتها، فلأن نظامها التعليمي يعد من أرقى وأنجح الأنظمة في العالم.

أبهرت **تايوان** العديد من الخبراء، باعتبار هذه الأخيرة دولة حديثة التصنيع. ويعرف ناتجها الوطني الخام ارتفاعا جعل البنك العالمي يصنفها ضمن الدول الغنية. يرجع بعض المنظرين هذا الأمر إلى التوزيع العادل للثروات الذي تبنته الدولة كمفتاح للتنمية. وبالمقابل ينتقد المراقبون الملكيات العقارية الضخمة في البرازيل والحكومات المتعاقبة التي عارضت الإصلاح الزراعي الذي دعت إليه نقابات الشمال الشرقي. ومع ذلك يتناول Alain Zantman في كتابه **استراتيجيات التنمية على محك الأحداث**، الإصلاح الزراعي في كوريا الجنوبية الذي رفع نسبة الملاكين ما بين 1947 و 1964 من 16,5 بالمائة إلى 77,6 بالمائة، وخفض معدل المزارعين من 42,0 إلى 5 بالمائة. يرى الكاتب أن هذا الإصلاح لم يفلح في تحسين الإنتاج الفلاحي، الذي ظل لمدة طويلة نقطة ضعف "المعجزة الكورية الجنوبية". قامت **تايوان** بعدها بتجربة مماثلة. أما "المعجزة البرازيلية" التي قادها الاقتصادي Delfin Neto، فلم تتمكن من الاستمرار طويلا على الرغم من استجدائها للشركات المتعددة الجنسيات واستجلابها للتكنولوجيا الحديثة، وقد تراجعت في النهاية بسبب قلة الرساميل.

على الرغم من مديونيتها الثقيلة، شأنها شأن "العملاق البرازيلي"، توفقت كوريا الجنوبية في بناء اقتصادها بالاعتماد على بنى تربوية متينة، الشيء الذي خفض معدل نموها السكاني ورفع نموها الاقتصادي.

يرى الخبراء أن النماء الباهر الذي شهدته تايوان راجع بالأساس إلى المساعدات الأمريكية وإلى النهج الاقتصادي الليبرالي الذي تبنته الحكومة. ولكن هناك بعض الدول الأسيوية التي اعتمدت النظام الليبرالي، وبعضها الآخر راهن على المعونات الأمريكية، ومع ذلك ظلت نتائجها الاقتصادية هزيلة وغير مرضية.

من جهتنا، نعزو التنمية الرائعة لتايوان إلى أمرين مهمين: يتمثل الأول في البنى التحتية، التي خلفها اليابانيون في هذا البلد ويتجلى الأمر الثاني في لجوء ملايين الصينيين ذوي المستويات الدراسية العالية إلى شبه جزيرة تايوان هروبا من القمع الشيوعي.

ساهم ارتفاع المستوى التعليمي في خفض معدلات النمو السكاني إلى نسبة 0,1 بالمائة. ومكن تراجع عدد السكان من تشجيع الادخار والاستثمار اللذان يعتبران، إلى جانب الساكنة المؤهلة عوامل ضرورية لتحقيق التنمية الاقتصادية.

بفضل سياستها التعليمية الحكيمة تمكنت **تايوان** من إحراز نجاحات اقتصادية وسكانية باهرة دون اللجوء- كما فعلت الصين- إلى إجراءات فظيعة (إجهاض الأجنة من الإناث). يقول مثل صيني قديم: "إذا أعطيتني سمكة فستكفيني شر الجوع يوما واحدا فقط أما إذا علمتني كيف أصطاد السمك فستقيني شر الجوع إلى الأبد". جعلت **تايوان** واليابان وكوريا الجنوبية من هذا المثل الشهير عنوانا لسياستها الاقتصادية. في عام 1951، كان عدد الطلاب في تايوان يقدر بحوالي 10.000 طالب، ارتفع هذا الرقم ليصبح سنة 1985 428576 طالب أي ضعف الأول بثلاثة وأربعين مرة. خلال نفس الفترة تضاعف الناتج الداخلي الخام بحوالي 47 مرة.

أما خلال الموسم الدراسي 1986/1985 فقد وصل عدد تلاميذ الأقسام الابتدائية إلى 2313240 تلميذا، وتلاميذ الأقسام الثانوية إلى 1250840 تلميذ، كما قدر طلبة التعليم العالي بحوالي 429576 طالبا أي ما يعادل ثمان مرات طلبة التعليم بنيجريا، الدولة التي تفوق ساكنتها ساكنة **تايوان** بحوالي مائة مليون نسمة.

تتوفر **تونس** على معدل تمدرس مرتفع وصل سنة 2002 إلى 74بالمائة، الشيء الذي يعطيها معدل تصنيع و مؤمل حياة عند الولادة مرتفعين.و يعتبر معدل النمو الديمغرافي فيها ضعيفا بنسبة 1,2بالمائة. تضع هذه المعدلات تونس في مصاف الدول الإفريقية التي قطعت أشواطا كبيرة في التقدم و التنمية. ما مصدر المعجزة التونسية إذن ؟

يجد التساؤل إجابته في شخصية الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة الذي استطاع بفضل حنكته و تبصره بناء الأسس الأولى لدولة قوية و متماسكة.لقد فطن بورقيبة منذ فجر الاستقلال إلى الرهانات الكبرى للتنمية فأعلن الانفصال عن حزب الدستور و إنشاء الدستور الجديد ثم دعا إلى استقلال البلاد و تحديثه و علمنته. و رغم المعارضة الشديدة التي لقيتها سياسته سواء في الداخل أو الخارج استطاع الصمود بثبات.في عام 1957 سن بورقيبة قوانين عدة لتشجيع التعليم و التمدرس و خصص لذالك ميزانيات ضخمة إيمانا منه بالدور المحوري للتربية في النهوض بالبلاد و عصرنتها. على عكس زعماء العالم الثالث الذين عاصروا فترة ما بعد الاستعمار يعتبر بورقيبة من الساسة القلائل الذين فهموا مبكرا دور التربية في مسلسل التنمية الاجتماعية و الاقتصادية.

ج - التربية كما يراها بعض كبار المفكرين :

أ- كارل ماركس :

تربط كارل ماركس بالتربية صلات بالغة التعقيد، لأن دور هذه الأخيرة في تحرير الطبقة العاملة يبقى غامضا، وتظل بنيتها وأهدافها مشوبة بالكثير من اللبس. لقد سقطت الاشتراكية التي كانت تسعى إلى انتزاع التربية من البورجوازية في فخ الدعاية و التمذهب.

أبدع ماركس في التنظير للفكر الرأسمالي في كتابه **الرأسمال** لكنه غالى في الوقت ذاته في انتقاد منظرين آخرين في هذا الباب كان يفترض التعاون معهم للتأثيث لنظرية عامة خالية من الثغرات.

إن المفكر الذي يعيش في عزلة عن نظرائه لن يستطيع بمفرده فهم كل تلك الظواهر الكونية المتداخلة والمترابطة و فك رموزها. لذا يجب خلق مؤسسة كونية يجتمع فيها المفكرون من كل البلدان والثقافات لوضع برامج مشتركة ذات أهداف موحدة.

أشاد ماركس بالوظيفة السامية للتربية شأنه شأن كبار الفلاسفة ودعاة النزعة الإنسانية. نقرأ في مؤلفه **الرأسمال** :"إنها التربية التي ستجمع، فيما يخص الأطفال من نفس السن، العمل المنتج

والتعليم والرياضة، وهذا ليس فقط بمثابة منهاج لزيادة الإنتاج الاجتماعي، ولكن كمنهاج وحيد لخلق رجال مكتملين".

لكن تخضع التربية في الممارسة الماركسية لقيود الصراع الطبقي، الشيء الذي يضع محتواها ومراميها محط تساؤلات كثيرة. في انجلترا القرن التاسع عشر، التي كانت تجتاز مرحلتها العالمثالثية، كان ماركس وانجلز يعيشان داخل أحياء فقيرة ومكتظة بالسكان، حيث كان الأطفال لا يرتادون المدارس وإنما المصانع والمعامل. ولذا كان المفكران ينتقدان بشدة التعليم العمومي، ويعلق ماركس على ذلك قائلا: "كان الطفل "يتدحرج" بين المعمل والمدرسة دون توقف" ويضيف انجلز :"إنه في الواقع أمر لا يطاق: أن يطلب من العمال الصغار، الذين أجهدوا أنفسهم في العمل اثنتا عشرة ساعة، الذهاب ليلا إلى المدرسة. الأطفال الذين كانوا يذهبون إلى هناك يغلبهم النعاس في أغلب الأحيان (...)".

يقول ماركس وانجلز في بيان الحزب الشيوعي:"ليس الفعل الذي تخضع له التربية من قبل المجتمع من وحي الشيوعيين. إن هؤلاء يقتصرون على تغيير طابعها، لذا فهم يخلصونها (أي التربية) من تأثير الطبقة الحاكمة".

لا يتمثل ماركس وانجلز التربية المدرسية كوسيلة ضرورية لأطفال "الطبقة العاملة" من أجل تحقيق ذواتهم، ولكن كحقل للترويج للإيديولوجيا الطبقية. إذ لا يمكن فصل الثورة الشيوعية عن تعليم الجماهير. بهذا تكون التربية الاشتراكية قد سقطت في مصيدة لطالما تحاشتها

من جهة أخرى، كتب ماركس وانجلز أن "آمال البورجوازية الإنجليزية ضئيلة، لكنها تخشى تعليم العمال. لقد خصصت الحكومة، في إطار ميزانيتها الضخمة، التي تتعدى 55 مليون جنيه استرليني، قرضا هزيلا لا يتجاوز 40.000 جنيه للتعليم العمومي". على صعيد آخر، اعترف المفكران على مضض بإصلاحات النظام التعليمي التي قامت بها الطبقة البورجوازية. يشير ماركس في هذا الصدد إلى ما يلي:"تعتبر قوانين المصنع الخاصة بالتربية ضحلة في مجملها، ولكنها مع ذلك تنادي بإرساء التعليم الأولي كشرط إجباري لاشتغال الأطفال".

في الواقع، توالت الإصلاحات التربوية بوثيرة سريعة، وحدثت ثورة حقيقية في النظم التعليمية.

يبين ماركس أهمية التربية في تطور المجتمع ويفصح عن ذلك في كتابه **نقد برنامج الكوطا**، الذي نشر عام 1870، ويقول :"إن الربط المبكر بين العمل المنتج والتعليم، يعد إحدى أهم الوسائل القوية لتغيير المجتمع الراهن". وعلى الرغم من ذلك، لا تدخل التربية ضمن الأولويات الكبرى لدى الماركسيين إلا حين يتعلق الأمر بدحض البورجوازية أو ترسيخ ديكتاتورية البروليتاريا.

يرى M.Dommanget، في كتابه **كبار الاشتراكيين والتربية** أن الدعوة "إلى تعليم علمي ومهني يشمل جميع الأطفال وحماية هؤلاء من لدن الدولة والجماعة" انبثقت عن البرنامج، الذي أنجزه كل من Marx و Engels و Guesde و Laforgue سنة 1879، في إطار الاتفاقية العمالية الفرنسية.

لم يأخذ كل من ماركس وانجلز بعين الاعتبار مخاطر التكاثر السكاني، والتي تحدث عنها مالتوس (Malthus)، الشيء الذي جعل المفكران يغفلان الدور الريادي للتربية في تجاوز المجتمعات الفقيرة والمفككة و «العالمثالثية» إلى مجتمعات صناعية.

مع ترسيخ ديكتاتوريا البروليتاريا، يبقى مضمون التربية غامضا، هذا ما يعبر عنه M.Dommanget في مقاله حول التربية في الاتحاد السوفياتي السابق :"دفع المربون الثوريون ثمن النقائص البيداغوجية للثقافة الاشتراكية. اعترف Pistrak بذلك قائلا:"لم نكن نتوفر على برامج ولا على قاعدة نظرية دقيقة تساعدنا على حلحلة المشكلة. إننا لم نكن نعرف كيف نصوغ المشكلة، والأدهى من ذلك، أننا لم نكن حتى قادرين على تحديد مكمنها ".

دعا ماركس وانجلز إلى "توفير التربية لجميع الأطفال ابتداء من سنواتهم الأولى، وتكفل المؤسسات الوطنية بهم والإنفاق عليهم"، ولكن المفكران تسائلا في قلق عمن "سيربي المربي" وأثارا بذلك نقاشا صاخبا وإيديولوجيا حول التربية الأخلاقية التي كان ماركس يطلق عليها "حشو المبادئ البورجوزية"، وحول التعليم المهني والتربية المتعددة التقنيات وعلمنة التعليم. باختصار، لم يستطع كل من ماركس وانجلز تقديم تصور شامل لبرنامج تعليمي اشتراكي متكامل يرقى إلى مستوى الصرح الاشتراكي الضخم الذي كانا من مؤسسيه.

إذا كان اليابان في "الحقبة الميجية" قد دشن العصر الصناعي بوضع برامج طموحة في مجال التعليم العمومي، فإن روسيا، صاحبة ثورة أكتوبر، ركزت مشاريعها على نزع الملكية الخاصة وإنشاء التعاونيات وخلق مجتمع اشتراكي جديد.

إن دول العالم الثالث اليوم، والتي تبنت النهج الاشتراكي، وجدت نفسها أمام معضلة تأميم بناها الصناعية، التي لم تكن تتوفر عليها بعد، وبناها الفلاحية التقليدية التي تعتمد على تقنيات عتيقة لم يتم القضاء عليها عن طريق تعليم وتكوين جماهير الفلاحين، الشيء الذي يجعل الدول الاشتراكية سابقا، سواء في إفريقيا أو آسيا أكثر أمية من غيرها في العالم.

تبقى المدرسة الماركسية، على الرغم من قوتها الأخلاقية مجرد أداة، ويحتل الفرد أو الزعيم مكانة مرموقة بما يتحلى به من كفاءات وما يحمله من قيم عليا.

2- توماس روبرت مالتوس :

لم يعترف Malthus، هو الآخر بدور المستوى التربوي في التثبيت الديمغرافي. خصص هذا المفكر الذي وصفه ماركس "بالمارق"، جزءا كبيرا من أعماله لدراسة مخاطر التكاثر السكاني.

كان ماركس مراهقا في الخامسة عشرة من عمره عندما توفي توماس روبرت مالتوس سنة 1834. إن موضع الخلاف بين الرجلين كان، في الواقع، ذا طابع وجداني ذاتي ولم يكن خلافا علميا عقلانيا. وللتذكير فقط، تكمن قوة الفكر الماركسي في حمولته الوجدانية والأخلاقية. كان ماركس يشعر بعطف أبوي حيال جماهير العمال الذين كان مالتوس ينظر إليهم نظرة ازدراء واحتقار. لقد اعتقد مالتوس أنه اكتشف أخير القانون الطبيعي الذي يتمثل في "تزايد الساكنة بوثيرة سريعة لا تتناسب وكمية الأغذية المتوفرة لديها". في سنة 1798، نشر مالتوس، تحت اسم مستعار، كتابه **مقال في مبدأ السكان،** الذي يعد رجعا لنظريات بعض كبار المفكرين من أمثال Condorcet و Godwin اللذان أحدثا قطيعة مع إيديولوجيا بعض الدول، التي تقول بوجود علاقة طبيعية بين السكان والأغذية. وتدعي أن الساكنة يمكن أن تستمر في التزايد حتى تبلغ حدود الإمكانيات الغذائية.

يعتبر الفقر بالنسبة لمالتوس الحد الأخير لنفاد مصادر التغذية. وسيكون من السذاجة أن يفكر البعض في حلحلة هذه المعضلة الكونية باستصلاح المزيد من الأراضي أو تحسين مردوديتها، لأن ذلك لن يزيد إلا في ارتفاع السكان، الشيء الذي سيؤدي إلى تفشي الفقر على نطاق واسع. لكن يجب استئصال الشر من جذوره أي تحديد النسل، ليس باستعمال موانع الحمل وإنما بالإمساك والتعفف ورفع سن الزواج.

إذا كان المذهب الماركسي المتميز بنزعته الإنسانية وطابعه العلمي قد حجب ولمدة طويلة أطروحات مالتوس، فإن هذه الأخيرة عاودت الظهور تحت مسمى "**المالتوسية الجديدة**". إن نظرية مالتوس التي ترى بأن الساكنة تنمو وفق متتالية هندسية، ومصادر الغذاء وفق متتالية حسابية، تبدو صائبة على الرغم من أن الكثيرين لازالوا يفندونها حتى يومنا هذا.

في القرن التاسع عشر، عارض .Say J.B –ومعه آخرون– مالتوس وانتقد أطروحاته مقترحا رفع الإنتاج وتشجيع المبادلات الصناعية كبدائل. من جهته، حمل Sismondi المسؤولية للملاكين الأغنياء الذين يشغلون العمال بأجور زهيدة لا تمكنهم من تنظيم حياتهم الأسرية.

.

و لكن في انتظار أن تمتلك البشرية جمعاء نظاما تربويا عصريا، ألا يجب الاعتراف بصدق مخاوف مالتوس الذي كان منشغلا بسعادة الانسان؟ في الحقيقة، نحن نميل إلى تصديق مالتوس، لأنه كان يعترض بالأساس على التناسب السيء بين السكان والغذاء، والذي لازال يقض مضجع العديد من بلدان العالم الثالث حتى يومنا هذا.

في الوقت الراهن، يوجد شكلان من أشكال المجتمعات المتوازنة على المستوى الديمغرافي: يتمثل الشكل الأول فيما يمكن أن نطلق عليه المجتمع البدائي، أما الثاني فهو المجتمع الصناعي، ويختفي الشكل الأول بمجرد احتكاكه بالثاني.

لا تزال مجتمعات بدائية تنتشر في غابات الأمازون وإفريقيا وبعض جزر المحيط الهادئ، وتعيش توازنا سكانيا طبيعيا تساهم فيه الأمراض والالتزام ببعض القوانين القبلية الفظيعة. إن هذه المجتمعات، التي تثير إعجاب الدارسين وتبهر السياح، تتعرض اليوم لطمس ممنهج لخصوصياتها الثقافية. ومن الواضح أن هذه المجتمعات لن تستطيع الصمود طويلا، وستختفي لا محالة مع بداية القرن الواحد والعشرين. ولكن يبقى التساؤل المطروح هو، هل كانت هذه المجتمعات أقل تطورا مما كانت عليه المجتمعات الصناعية ؟ ثم على أي مستوى؟ هل على المستوى البيئي أم الاقتصادي أم الاجتماعي؟

لا نهدف من وراء تساؤلنا إثارة النقاش من جديد حول **أفضل العوالم** لمؤلفه Aldous Huxley، وإنما نسعى إلى التأكيد على أن شكل المجتمع الصناعي استطاع فرض نفسه في سائر المعمور،

لأنه أثبت فعاليته وقدرته على تنوير الإنسان. وأما الاختلالات التي أفرزها هذا المجتمع، فإنه قادر على معالجتها بالتركيز على البنى التربوية.

إن هذا الأمر هو ما أغلفه مالتوس في تحليلاته، فبدل تركيزه على تعليم الإنسان لتمكينه من اكتساب وسائل تساعده على تنظيم حياته، راح مالتوس ينتقد بشراسة الانفجار السكاني. رد **Proudhon** وهو مفكر اشتراكي عاش في القرن التاسع عشر على أطروحات مالتوس بنبرة ساخرة وقال: " **لا تزال الأرض رحبة بساكنيها، وإن كان هناك شخص واحد قد ضاقت به ذرعا فهو مالتوس**". إن عدم الاكتراث للتكاثر السكاني وتركيز الاهتمام على البنى الاجتماعية تقليد دأب عليه الاشتراكيون منذ القرن التاسع عشر. ولكن عدم إدخالهم التربية ضمن أولوياتهم تسبب في نتائج كارثية داخل الدول ذات النهج الاشتراكي.

في القرن التاسع عشر، كان الاشتراكيون، ومعهم مالتوس، يمتعضون من الربط المباشر بين عدد السكان والمستوى المعيشي، و يستاءون من اعتبار التزايد السكاني سببا في تدهور الأجور وتفشي الفقر. عرف الاقتصادي الشهير David Ricardo الأجرة على أنها سعر قوة العمل التي تخضع لتقلبات السوق.

امتعض المفكرون الاشتراكيون كثيرا من مقارنة عمل الإنسان بسلعة رخيصة تعرض في الأسواق. ولكن امتعاضهم لا مبرر له، لأن العمل الذي يعرضه "الرأسمالي" يخضع هو بدوره لتقلبات السوق. والعمال أنفسهم لا يرتادون إلا المصانع والمعامل التي تدفع أجورا مغرية. يرى مالتوس أن الارتفاع الكبير لعدد العمال يؤدي إلى تدني مستوى الأجور. من جهته، يعتقد ماركس جازما أن انخفاض الأجور خاضع لإرادة "الرأسمالي" الذي لا يمنح العمال إلا ما يساعد على إبقائهم أحياء. بالنسبة للاقتصاديين الكلاسيكيين من أمثال A.Smith و D.Ricardo، تعتبر الأجرة والسعر والفائدة من مقومات نفس نظام السوق الذي يسير في تجاه منسجم. أما ماركس، فيقر بعكس ذلك حيث يرى أن فوائد الرأسمال وفوائد العمل تتناقضان كلية. طبعت هذه الأطروحة الماركسية علاقات الشمال والجنوب. ويشير أنصارها إلى أن اغتناء البلدان "الرأسمالية" التي تشكل **المركز** لا يتحقق إلا بإفقار البلدان "البروليتارية" التي تمثل **الأطراف**، وهكذا خلقوا منافسين في صفوف الليبراليين حيث يتصادم دعاة الحمائية مع دعاة التبادل الحر.

يؤيد "الحمائيون" الأطروحة المعاكسة والتي تزعم بأن اغتناء دول الجنوب لا يمكنه أن يتحقق إلا بإفقار دول الشمال.

يتخبط العالم الثالث في أزماته البنيوية ويعيش على هامش المبادلات التجارية الدولية، ولا تتعدى حصته من الإنتاج الصناعي العالمي 10 بالمائة. وهذا الأمر يعني أن العالم الصناعي يستطيع العيش في رخاء مستغنيا عن العالم الثالث الراهن. وسوف لن ينقصه، في حقيقة الأمر إلا سحر مناظره الطبيعية

عندما يهتدي العالم الثالث إلى التحكم في ساكنته وتطوير اقتصاده عن طريق تعميم التربية، فسيصبح–ولا نشك في ذلك – سوقا ضخما وقبلة تحج إليها دول الشمال. وباغتنائه سيكون الجنوب قادرا على إغناء الشمال. إن ارتفاع أجور "الطبقة العاملة" لا يفقر "الرأسماليين"، وإنما يشجع الاستهلاك، ومن ثم الإنتاج الذي يثري أرصدة "الرأسماليين". يمكن أن نعمم هذه العلاقة الدائرية على الأمم "الرأسمالية" والأمم "البروليتارية". تسير انشغالات الاشتراكيين "والحمائيين" وفق منطق معكوس، أما اهتمامات مالتوس، فيجهلها البعض بينما يتجاهلها البعض الآخر.

3_ والت ويتمان روستو:

يعد Whalt Whitman Rostow عالما اقتصاديا متميزا، ويعتبر تحليله الأقرب إلى الأطروحة الماركسية. يعتقد Rostow، ومعه ماركس، أن كل المجتمعات يمكن أن تمر بنفس المسلسل الكفيل بإيصالها إلى نفس الأهداف.

وعليه، فالعالم الثالث اليوم ليس ظاهرة معزولة في الزمان و المكان، مقتصرة على الشق الجنوبي من الكرة الأرضية، وفريدة في تاريخ البشرية، بل مجموعة من الشعوب – التي تشبه الشعوب الغربية فيما قبل– تمر بخمس مراحل متتالية: مرحلة الاقتصاد التقليدي، مرحلة التنظيم السياسي والاجتماعي، مرحلة الانطلاق، مرحلة السير نحو النضج الاقتصادي ومرحلة الاستهلاك الشعبي.

يتناول Rostow في كتابه **مراحل النمو الاقتصادي** تقاطعاته مع المذهب الماركسي، ويقدم تحليله مختصرا في ست نقاط:

أ- يفحص تحليلا روستو وماركس البنى الاقتصادية في تطورها التاريخي "والمشاكل والنتائج التي على المجتمعات مجابهتها بعد إدماجها "للفائدة المركبة" في عاداتها ومؤسساتها".

ب- يخلص التحليلان إلى أن للنمو الاقتصادي انعكاسات اجتماعية وسياسية وثقافية.

ت- لفائدة الربح الاقتصادي دور كبير في الانتقال من المجتمع التقليدي إلى عصر الاستهلاك الجماهيري.

ث- يؤمن التحليلان بوجود علاقات مباشرة بين الحروب والمصالح الاقتصادية، على الرغم من اختلافهما حول طبيعة هذه العلاقات.

ج- تسعى الأطروحتان إلى تحقيق نفس الهدف السامي للمجتمع حيث "يصبح العمل من أولى ضرورات الحياة".

ج- أخيرا، تتناول النقطة السادسة التقنية الاقتصادية التي تهدف إلى دراسة النمو الاقتصادي بشكل "قطاعي".

يحاول Rostow في مؤلفه **مراحل النمو الاقتصادي** الذي صدر في طبعته الإنجليزية تحت عنوان فرعي هو **بيان غير شيوعي**، البرهنة على أن أي بلد يمكنه بلوغ التنمية وعصر الاستهلاك الجماهيري شريطة أن يوفر الظروف الملائمة للنمو.

وتتمثل هذه الظروف في ارتفاع معدل الاستثمار مقارنة مع الناتج القومي الصافي (PNN). هكذا يمكن **للانطلاق** أن يتحقق على أن ينتقل معدل الاستثمار من 5 إلى 10 بالمائة وما فوق من الناتج القومي الصافي. ولكن قبل الانطلاق هناك مرحلة المجتمع التقليدي ومرحلة الشروط الممهدة للإقلاع.

يتميز المجتمع التقليدي من وجهة نظر Rostow بهيمنة القطاع الفلاحي وسيادة قيم الدين والتعصب وأهمية الأسرة وامتلاك السلطة عن طريق الملكية العقارية والمعرفة المتوارثة.

إبان مرحلة "الشروط الممهدة للإقلاع" عم التفاؤل وانتعش الاقتصاد، كما ارتفعت الأرباح وتنامى الشعور القومي. وبالتالي نما الادخار والاستثمار، وأدى اكتساب معارف وتقنيات جديدة إلى

الرفع من الإنتاج الفلاحي والصناعي. ومن الواضح أن Rostow لم يهتم، في الواقع، بشرح آليات التطور واستنباط منهاج أو استراتيجية يمكن توظيفها لإحداث **الانطلاق الاقتصادي**، ولكنه ركز اهتماماته فقط على وصف المظاهر الاجتماعية و الاقتصادية التي برزت خلال مراحل النمو الخمس المذكورة. هذه النقطة الأخيرة ثغرة في دراسة Rostow، التي تنفرد مع ذلك بأصالتها ورصانتها. ليس التفاؤل والحيوية والقومية والبحث عن الربح، في نظرنا، ميزات تخص مرحلة ما قبل الانطلاق فقط، ولكن الادخار والاستثمار، اللذين يعتبران محور تحليل Rostow، يشكلان ميزتيه الرئيسيتين.

ومع ذلك، يبقى التساؤل المطروح هو: ما السر في حدوث الانطلاق فجأة ؟ يجيب Rostow بتقديم سلسلة طويلة من الشروط من بينها تلك التي سبقت الانطلاق. في الحقيقة، لا يقدم الكاتب جوابا صريحا، لأنه يستحيل "اختبار جميع الشروط" إذ يراهن، في الغالب، على شرط واحد من شأنه إحداث الانطلاق المطلوب.

في كتابه المذكور آنفا، لا يعطي Rostow تفسيرا للانطلاق الذي شهدته انجلترا سنة 1780 والذي انتشر سريعا ليعم سائر بلدان أوروبا والعالم. حسب Rostow، حدث هذا الانطلاق في فرنسا سنة 1830، وفي الولايات المتحدة عام 1850، وفي اليابان سنة 1879.

من جهتنا، لا نستطيع الإجابة عن هذا التساؤل العويص، لكن يجيب عنه عالم الانثروبولوجيا الفرنسي Claude Lévi-Strauss، بتعبيره الشهير "**المراهن المحتمل على السلاسل الطويلة**". سنشرح هذه العبارة فيما بعد.

بعد مرحلة المجتمع التقليدي، ساهمت مقومات المرحلة "العالمثالثية" التي تناولناها في دراستنا في توفير نفس الشروط الممهدة للانطلاق. نعتقد أن الفكر الاستعماري والمبادلات الدولية و الهجرة كانت الخيط الرابط بين الدول. انطلاقا من إنجلترا.

في فقرة "الشروط الممهدة للانطلاق يكتب Rostow ما يلي: "من المحتمل أن تكون النزعة القومية البريطانية، التي أفرزتها تحديات فرضت على تلك الجزيرة الصغيرة والمعزولة عن القارة الأوروبية، أحد أهم الأسباب التي أدت إلى خلق شكل اجتماعي مرن تبلورت فيه الشروط الممهدة للانطلاق". في الفقرة الموالية يضيف Rostow :"يمكن إرجاع بداية الانطلاق بشكل عام إلى مثير

نشيط (Stimulus) يحتمل أن يتخذ شكل ثورة سياسية تؤثر مباشرة في توازن السلط والقيم الأخلاقية والمؤسسات الاقتصادية (...) في بعض الحالات، يمكن أن يكون الأمر متعلقا بتغير إيجابي للظروف الدولية (...)ولكن في حالات أخرى يقاوم هذا المثير الذي ينبثق عن مجهود واع التهديدات الصادرة عن تقلبات الظرفية الدولية (...) إن ما يهمنا هنا، ليس الشكل الذي يتخذه المثير، ولكن قدرة المجتمع ببناه الاقتصادية على التجاوب مع هذا المثير بشكل إيجابي متواصل وحيوي (...) وهكذا أدت هذه المثيرات المتزامنة مفعولها عبر العالم، بدءا من انجلترا، مع بضع سنوات كفارق زمني".

يبدو هذا التفسير أقل إقناعا من سابقه. ونحن ننخرط في الرؤية التي تجعل من دمقرطة التعليم شرطا حتميا لتجاوز المرحلة 'العالمثالثية' التي يطلق عليها Rostow "مرحلة الانطلاق".و يحددها هذا الأخير للانطلاق في مختلف البلدان تواريخا تتناسب تقريبا مع تواريخ أهم الإصلاحات التربوية.

عرفت انجلترا، على حد قول Rostow مرحلة انطلاقها الاقتصادي ما بين 1783 و 1802، وشهدت التربية المدرسية، كما يقول Mialaret و Vial قفزة كبيرة تمثلت في المجانية والإجبارية"، وفي بداية القرن التاسع عشر، أنشئت وزارة التعليم العمومي. يحدد Rostow الإنطلاق الاقتصادي في فرنسا في الفترة الممتدة بين 1830 و 1860، حيث صودق على قانون Guizot الشهير في 28 يونيو / حزيران سنة 1833. يجبر هذا القانون الجماعات المحلية على الالتزام بأمرين : أولا، يجب على كل جماعة فتح مدرسة ابتدائية وتخصيص أجرة شهرية للمعلمين وضمان السكن لهم. ثانيا، تلتزم كل جهة إدارية بإنشاء مركز لتكوين المعلمين. في الولايات المتحدة الأمريكية، حدث الانطلاق على حد قول Rostow ما بين 1843 و 1860. يخبرنا Alexis de Tocqueville، في كتابه **الديمقراطية في أمريكا** بأن التعليم الأولي كان مفتوحا أمام الجميع في أمريكا الشمالية، ولا غرو، فالتعليم العمومي كما يراه Condorcet "ضروري لخلق مواطن مسؤول".

أما ألمانيا، فشهدت انطلاقها الاقتصادي حسب Rostow خلال الفترة الواقعة بين 1850 و 1873. عند بداية القرن التاسع عشر، عرفت نظريات عالم التربية السويسري Pestalozzi (1746-1827) صدى عميقا في بروسيا.

في كتابه الشهير **خطاب إلى الأمة الألمانية**، أثنى Fichte على مذهب Pestalozzi الذي يملك في رأيه "القوة الكافية لمساعدة الشعوب على الخروج من حالة البؤس التي تتخبط فيها".

امتد الانطلاق الاقتصادي في السويد ما بين 1868 و 1890، و تعمم التعليم الإجباري والمجاني في سائر أرجاء البلاد انطلاقا من عام 1880.

في اليابان، تحدد الانطلاق طبقا لتحليل Rostow في الفترة المحصورة بين 1878 و 1900. وفي عام 1879، صادقت الحكومة اليابانية على قانون Kyoikurei الشهير، والذي كان في نظرنا ثورة تربوية حقيقية.

وخلاصة الأمر، يعتبر "**مثير**" الانطلاق ثمرة مسلسل طويل من اكتساب المعارف الجديدة بدأ في إنجلترا وانتشر عبر أوروبا في باقي أنحاء العالم. لم تتطرق تحليلات Rostow بالقدر الكافي إلى التفكك البنيوي للمجتمع التقليدي الذي كان يتخذ أشكالا عديدة مثل الانفجار السكاني والهجرة الريفية والفقر المدقع والحروب.

في مؤلفه المذكور آنفا، يعتبر Rostow التزايد السكاني وتحقيق الرفاهية أمران متوازيان ومتزامنان.

ولكن في العصر الصناعي لم يعد التزايد البشري علامة من علامات الرفاهية، ومع ذلك يقول Rostow:"من أجل ضمان الانطلاق يجب أن يرتفع الدخل القومي الصافي (أو الناتج القومي الصافي) من 5 إلى 10 وما فوق بالمائة، لكي يقاوم الضغط السكاني المحتمل، ويحدث ارتفاعا ملموسا في الإنتاج الحقيقي للفرد الواحد. أما الاستهلاك الحقيقي للفرد فارتفاعه أو استقراره مرهون ببنية توزيع المداخيل وبالضغط السكاني، وكذا بحجم وطبيعة وإنتاجية الاستثمارات ذاتها".

من ناحية النمو الاقتصادي وابتداء من مرحلة الانطلاق، يبدو تحليل Rostow مقنعا جدا. إذا اعتبرنا أن معامل الرأسمال الحدي في اقتصاد لا يزال في بداية نموه يعادل 3,5 وإذا أخذنا بعين الاعتبار تزايدا سكانيا في حدود 1 إلى 1,5 بالمائة (...) فإنه يتحتم علينا كما يقول Rostow استثمار ما بين 3,5 و 5,25 بالمائة من الناتج القومي الصافي حماية لهذا الأخير من البتر.

وبالتالي، يقر Rostow بأن "الانطلاق" يتطلب تظافر ثلاثة شروط ترتبط فيما بينها ارتباطا وثيقا:

1- ارتفاع معدل الاستثمار المنتج من 5 أو أقل من 5 إلى ما فوق 10 في المائة من الدخل القومي (أو الناتج القومي الصافي).

2- خلق قطاع أو قطاعات مهمة للصناعة التحويلية يكون معدل نموها مرتفعا.

3- وضع جهاز سياسي واجتماعي ومؤسساتي يستغل **الميول** نحو التوسع في القطاع العصري، وكذا الإمكانيات التي يتيحها الانطلاق لتحقيق التوفير من خلال شراء المنتجات الأجنبية".

في ظل غياب بنى تربوية واسعة ومتينة يستحيل تظافر هذه الشروط الثلاثة، والتي يضعها Rostow كحد أدنى لتحقيق الانطلاق: يفترض الجهاز السياسي والاجتماعي والمؤسساتي رفع المستوى العام للسكان بمعنى المستوى التعليمي. ويستلزم إنشاء قطاعات ضخمة للصناعة التحويلية توفير يد عاملة مؤهلة ومكونة. فيما يخص الشرط الأول، يستحيل رفع معدل الاستثمار ما لم يكن الادخار الداخلي مهما ويخدم الإنتاج بهدف تحقيق معدل ادخار حدي مرتفع.

في العديد من بلدان العالم الثالث الحالي حيث يفوق معدل التكاثر الطبيعي معدل النمو الاقتصادي تصرف القروض الآتية من الخارج والموجهة للاستثمار، لقضاء الحاجات الضرورية، الشيء الذي يجعل الادخار مستحيلا.و في غيابه ينعدم الاستثمار ويصبح الانطلاق ضربا من الخيال، وهكذا تجد الشعوب 'العالمثالثية' نفسها تتخبط في وحل الفقر والفاقة. يسترسل Rostow قائلا:"بعد تعريف وتحديد الانطلاق، يجب علينا فحص الوسائل التي ساهمت في رفع معدل الاستثمار من زاوية العرض والطلب، كما يجدر بنا معرفة الكيفية التي أنشئت بها قطاعات الصناعة التحويلية في فترة النمو السريع(...)".

كما هو الحال بالنسبة لمثيرات الانطلاق، ما هي الكيفية التي يرتفع بها معدل الاستثمار الذي يتطلبه الانطلاق؟ يبقى هذا التساؤل دون إجابة مقنعة.

أخيرا نشيد بنظرية روستو التي تصف العصر الصناعي بأنه مسلسل كوني أو مجموعة مراحل متسلسلة يجب أن تمر بها كل دول المعمور قبل الوصول إلى مرحلة الاستهلاك

الجماهيري، لكننا نؤاخذ أيضا على تلك الأطروحة عدم اكتراثها للمخاوف البيئية والاجتماعية. سجل صيف 2003 أعلى درجة حرارة منذ أواسط القرن السادس عشر. إذا اعتبرنا تلك السنة استثناء مناخيا فإننا نخاف صراحة أن تكون السنة التي تلتها بداية مسلسل مناخي كارثي خاصة وأن ظاهرة الاحتباس الحراري تساهم في ارتفاع حرارة الأرض بمعدل درجة واحدة في كل سنة على حد رأي كبار الخبراء المناخيين.

ليست المخاوف الديمغرافية اقل حدة من المخاوف البيئية لأن الاستهلاك الجماهيري لم يعد يهم مليارا فقط بل سبعة ملايير من البشر. كيف إذن وصلت البشرية إلى هذه الوضعية الديمغرافية المؤسفة ؟

إن التساؤل الكبير الذي يفرض نفسه بإلحاح هو: كيف تنشأ الحضارة؟ إذا كنا قد حاولنا تفسير تطورها الداخلي وتطورها عبر باقي العالم من زاوية التنمية وانتشار المعارف الجديدة، فإنه يبقى لنا أن نستفسر حول هذه الشرارة التي تمهد بعفوية لبزوغ حضارة ما في مكان ما.

فيما يتصل بدراستنا، لماذا ظهرت الحضارة الصناعية في انجلترا ولم تظهر في مكان آخر ؟ ولماذا في القرن التاسع عشر بالضبط؟

4- كلود ليفي ستراوس:

يرى Claude Lévi-Strauss أن الشرارة المولدة لحضارة ما تصدر عن لعبة احتمال تزاوج مجموعة من الثقافات. لقد سبقت الإشارة في الفقرات السابقة إلى أنه كلما كانت منطقة ما – مثل منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط– غنية من حيث تعددها الثقافي، كلما كان احتمال نشوء حضارة بها كبيرا. وعلى العكس، كلما كانت هذه المناطق معزولة عن بعضها البعض، كلما كان احتمال ميلاد الحضارة ضعيفا.

يشبه Lévi-Strauss نشوء الحضارة بسلسلة طويلة في لعبة الحظ حيث تقارن كل ثقافة بلاعب منعزل.يقول الكاتب في مؤلفه **عرق وتاريخ:" إن اللاعب (...) الذي لا يراهن إلا على السلاسل الطويلة يكون أكثر عرضة للخسارة. ولن يكون هذا حال مقامرين تحالفوا للمراهنة على نفس السلاسل –لكن على عدة عجلات مرقمة– وتجميع النتائج الإيجابية لكل لاعب (...) وتشبه هذه الحالة كثيرا وضعية الثقافات التي اهتدت إلى تجميع أشكالها التاريخية. لم تكن الأشكال**

الحضارية قط من نتاج الثقافات المنفردة، ولكنها وليدة الثقافات المتداخلة بشكل إرادي أو عفوي.لقد لعبت الهجرات والحروب والمبادلات التجارية دورا مهما في بلورة التحالفات المحتملة لهذه الأشكال الحضارية (...) لا يمكن لثقافة ما أن تدعي سموها أو تفوقها مادامت منعزلة عن مثيلاتها، شأنها في ذلك شأن المراهن المنفرد، فهي تكتفي بالمراهنة على سلاسل صغيرة تحتوي فقط على بضعة أرقام، واحتمال الفوز بسلسلة طويلة يبقى ضعيفا جدا، مما يستدعي وقتا أطول من الوقت الذي يتطلبه التطور الشامل للبشرية".

بعد ذلك يتساءل Lévi-Strauss عن السر الذي جعل حركة الإنسانية تتجمد لمدة تسعة أعشار تاريخها. تشكلت الحضارات الأولى، على حد الافتراض، منذ حوالي 200 أو 500 ألف سنة، في حين لم تبدأ شروط الحياة في التبلور إلا خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة.

يفسر Lévi-Strauss هذه النقطة مستعينا باستعارة لعبة الاحتمالات التي يمكنها أن تفرز تركيبا معينا قد يأتي مبكرا أو متأخرا.

ولكن المفكر الفرنسي يغفل، على ما نعتقد، تأثير التزايد السكاني السريع الذي يرفع بشكل كبير عدد "المراهنين" المشاركين في "لعبة الحضارة" ويزيد الحظوظ في الظفر بالسلاسل الطويلة، وهذا ما تؤكده الاكتشافات الكثيرة والباهرة التي تحققت خلال القرنين السابقين.

5- بول بايروش:

يعبر Paul Bairoch من أهم الكتاب المنشغلين بقضايا العالم الثالث ويعد كتابه **العالم الثالث والطريق المسدود** الذي صدر عن دار النشر الفرنسية الشهيرة Gallimard عام 1971 والذي أعيد نشره بعد تنقيحه عام 2000 من أكثر مؤلفاته شهرة. ترجم هذا الكتاب القيم إلى ست لغات فقط بينما تترجم كتب تافهة إلى عشرات اللغات الشيء الذي يفسر تدني الذوق العام لدى الكثير من الناس.

لم نكتشف هذا الكتاب المفيد إلا في عام 2004. في الواقع نختلف معه في تفسيره لبزوغ الحضارة الصناعية في انجلترا وفي دراسته للمعجزة اليابانية ودور التربية في ذلك إلا أننا نعتبره الكتاب الجامع في رصده لحقيقة العالم الثالث والأقرب في معالجته لقضاياه المتشعبة. لهذا الاعتبار ارتأينا تخصيص الجزء الثالث من دراستنا لتحليل مضامين كتاب بول بايروش.

6-ثيودور ويليام شولتز:

يركز Théodore W.Schultz كل أطروحاته، التي يحويها كتابه **لا ثروة إلا بالعنصر البشري** على استثمار الرأسمال البشري كمفتاح للتنمية.

يقول هذا الأخير:"إن الاستثمارات التي تهدف إلى رفع جودة السكان يمكنها أن تسهم في تحسين الآفاق الاقتصادية والمستوى المعيشي للفئات الأكثر فقرا. و يمكن أن ترفع جودة الساكنة عن طريق توفير وسائل العلاج للأطفال والتكوين الأسري والمهني واكتساب المعارف والمهارات المدرسية، وكذا الاستثمار في المجالين الصحي والتعليمي". في الفقرة التي تحمل عنوان **اقتصاد العوز**، يطرح Schultz بعض الأدلة على أن "العالمثالثية" (Tiermondisation) ظاهرة كونية: "في انجلترا، أيام Ricardo، كان نصف دخل أسرة عاملة يوجه إلى الإنفاق على التغذية. **ولا تزال العديد من الدول الفقيرة تعيش الأمر ذاته.** ويؤكد Marshall **أن "الأجرة الأسبوعية لعامل إنجليزي كانت في الغالب لا تكفي لاقتناء 6 كيلوغرامات من القمح الجيد**" في الوقت الذي نشر فيه Ricardo كتابه **مبادئ الاقتصاد السياسي والضريبة.** في الوقت الراهن، تعادل الأجرة الأسبوعية لمزارع هندي ما يقارب ثمن 26 كلغ من القمح". يقول Marshall في كتابه **مبادئ الاقتصاد:**" يتشكل الرأسمال في جزئه الأكبر من المعارف والتنظيمات أما العلم فهو الوسيلة القوية لتحقيق الإنتاج (....)".

انسجاما مع أطروحات Marshall، يرى Kuznets أن نفقات التربية والصحة والترفيه التي يمكن اعتبارها بمثابة استثمارات في الإنسان يحتمل أن تصل إلى أربعة أعشار حجم الرأسمال. أما فيما يخص قيمة العمل فهي ترتفع تبعا للاستثمارات الموجهة إلى الرأسمال البشري. يؤكد Schultz أن الأجرة الحقيقية لساعة عمل في الولايات المتحدة تضاعفت خمس مرات منذ سنة 1900. في زمن Ricardo لم تكن الأجرة الأسبوعية للعمال البريطانيين تتعدى ثمن 6 كيلوغرامات من القمح". وفي زمن Marshall، وبالضبط في عام 1890، "كانت الأجرة الأسبوعية تعادل، على حد التقدير، ثمن 117 كيلوغرام من القمح. أما في سنة 1970، فكانت الأجرة الأسبوعية لعامل صناعي تضاهي ثمن 1209 كيلوغراما من القمح الجيد". يفسر Schultz هذا الارتفاع المدهش لقيمة الزمن البشري بتشكل أنماط جديدة من الرأسمال البشري استجابة لمثيرات اقتصادية:" وهذا هو ما يجعل النظرية الماركسية نظرية متميزة وتنم عن أصالة فكر صاحبها الذي يشير إلى أن "الرأسماليين" يحافظون على تدني الأجور ضمانا لإعادة إنتاج قوة العمل.

بنفس الطريقة يتناول Schultz بالتحليل الانعكاسات الاقتصادية للاستثمار في المجال الصحي والذي يترجم بتمديد مؤمل الحياة عند الولادة بشكل ملموس.

بمساعدة البروفسور الهندي Rati Ram، انكب Schultz على دراسة حالة الهند التي ارتفع فيها مؤمل الحياة ما بين 1951 و 1971 إلى 43 بالمائة عند الرجال و 41 بالمائة في صفوف النساء. يشير Schultz إلى أعمال Usher، الذي يوضح "تحليله" الامبيريقي" أن هذه المنفعة الإضافية ترفع بشكل جوهري قيمة الدخل الفردي". فيما يخص "كفاءة المقاولين"، يبرهن Schultz على أن "تحسنها يعد أحد العناصر المكونة لجودة السكان".

بالنسبة لوضعية المقاولين الفلاحيين يبين الكاتب بأن الأثر الذي يخلفه التكوين في نفوسهم، يحررهم من "الرتابة التي تسم الفلاحة التقليدية"، ويدفعهم إلى اختبار أنواع جديدة من الأرز والقمح ذات مردودية مرتفعة. ولقد أسهمت جهودهم، بفضل الاستفادة من نتائج البحث الزراعي في رفع إنتاج الحبوب بشكل غير مسبوق.

إن النقطة التي نختلف فيها مع Schultz، والتي تتكرر كثيرا في كتابه، هي سخريته من المخاوف الصادرة عن نظريات كل من Malthus و Ricardo.

يكتب Schultz في مقدمة مؤلفه :" نستشعر قلقا شديدا حيال الإمكانيات الغذائية والطاقية والخصائص الفيزيائية للأرض. لكن هذا التخوف ليس جديدا. إنه تخوف عبر عنه بقوة كل من مالتوس وريكاردو، عند بداية القرن التاسع عشر. إنني أرفض بشدة هذه المخاوف، عندما أرى أن التنبؤات السوداوية الحالية تتبني في معظمها على فكرة تدهور الموارد الطبيعية التي تجود بها الأرض (...)".

وبالتالي، يعتبر Schultz المخاوف التي نستشعرها إزاء التزايد السكاني وانخفاض الموارد غير مبررة، لأن ارتفاع عدد السكان في نظره هو وحده الكفيل برفع مستوى رفاهية البشر. بالنسبة لSchultz، تفقد "نظرية المردودية" عند ريكاردو مصداقيتها لأن الفلاحة العصرية حولت الأراضي العقيمة سابقا إلى أراضي صالحة للزراعة، كما توصل البحث الزراعي إلى إيجاد بدائل اصطناعية عن الأراضي المحروثة. وعلاوة على ذلك، أدى الاستعمال المكثف للأسمدة ومبيدات الطفيليات، واعتماد الآلات الفلاحية إلى تغيير المفهوم الكلاسيكي للاستغلال الفلاحي. ويشير Schultz إلى

نموذج الأراضي الفنلاندية التي كانت أقل جودة من الأراضي السوفيتية سابقا، لكن ما لبثت الأولى أن أصبحت أفضل حالا من الثانية. يسجل Schultz نفس الملاحظة بالنسبة للأراضي اليابانية مقارنة بأراضي شمال الهند، مع أنه لا يذكر سعر الأرز الياباني الذي يفوق بعشر مرات نظيره في الخارج. في الفقرة التي تحمل عنوان **اقتصاد العوز**، يقول Schultz :"يملك الإنسان الذكاء والوسائل التي تمكنه من خفض اعتماده على الأراضي المحروثة والفلاحة التقليدية وتحفزه على مواجهة نفاد مصدر الطاقة وتدفعه إلى نقص التكاليف الحقيقية لإنتاج الأغذية التي تحتاجها ساكنة العالم المتزايدة".

نحن لا نؤيد Schultz في وجهة نظره هذه. وهذا يقودنا إلى طرح التساؤل التالي: هل يجب محو مبدأ التزايد السكاني بمجرد بلوغ سكان العالم عشرات الملايير؟ في كوكب الأرض على الأقل، لأن الأعداد البشرية الهائلة قد تجاوزت بشكل كبير حد المطاق.

من جهة أخرى، تكلف الاستغلاليات الفلاحية التي تعتمد على الأسمدة ومبيدات الطفيليات والآليات الحديثة أكثر مما تنتجه، لأن الإنتاج والنقل واستعمال الأسمدة والمبيدات وتجهيز الأراضي الاصطناعية يتطلب كميات هائلة من الثروات المعدنية والطاقية، وبالتالي يخرب البيئة بشكل مأساوي.

تعد أطروحات Schultz التي تدعو إلى توفير المزيد من الاستغلاليات الفلاحية لسد حاجات السكان المتزايدين، منبوذة من الناحية البيئية لأن تبنيها يعني ببساطة اجتثاث الغابات والتصحر وإبادة الأنواع الحيوانية وتفشي الجفاف، وربما طمس إنسانية الإنسان.

في الفقرة الثانية من كتابه والتي تحمل عنوان **الاستثمار في مجال السكان**، يحكي Schultz كيف كان يتسلى رفقة طالب ياباني باحتساب المساحة الضرورية الكافية لكل سكان العالم مجتمعين "إذا أعطينا لكل نسمة فقط ما يسعها للوقوف. أظهرت الأرقام المحصلة أن جزءا صغيرا فقط من Dane County، والذي بنيت عليه جامعة Wisconsin، يفي بالغرض".

نعتقد أن هذا الجزء البسيط يكفي لدفن البشرية وقوفا، لكن لا يسعها بالتأكيد لكي تحظى بالمستوى المعيشي للساكنة الأمريكية.

قد يستغرب البعض هذا المنطق الساذج من عالم اقتصاد محنك مثل Schultz، ولكن يبدو أن هذا الأخير أراد فقط مداعبة القراء بعدم تهويل المشكلة الديمغرافية، إذ من الواضح أن الكاتب واع كل الوعي بالمعضلة، ولكنه يفضل التقليل من أهميتها. فيما يخص الاستثمار في المجال الصحي، نراه يقول:"على الرغم من التزايد السكاني الذي أفرزه تحسن الوضع الصحي، فإن هذا الأخير أسهم في تحقيق الرفاهية للفئات الأكثر فقرا (...).

إن الشيء الذي لم ينتبه إليه الناس، هو أن التزايد السكاني لم يمنع كما قد يتبادر إلى الأذهان، تنامي الرفاهية (...) على صعيد آخر كلما ارتفع الدخل الفردي، إلا واختار الآباء تحديد نسلهم". إن موطن خلافنا مع Schultz ليس تحسن الوضعية الصحية التي تؤدي إلى التزايد السكاني، ولكن التقدم الصحي المقرون بالأمية. إن غياب التربية يفرز الانفجار السكاني الذي يحلو للبعض نعته "بالقنبلة الديمغرافية".

وعليه، لا يتراجع التزايد السكاني بارتفاع الدخل، ولكن بارتفاع المستوى التربوي، وأوضح مثال على ذلك دولة الإمارات العربية المتحدة التي ارتفع معدلا سكانها ودخل الفرد فيها بشكل متواز يصل الأول حاليا إلى 9,2 بالمائة، بينما يناهز الثاني 15.632 دولارا أمريكيا.

يؤمن Schultz، شأنه في ذلك شأن ماركس بالإنسان و بالعلم ويبغض نظريات مالتوس وريكاردو ويتعاطف كثيرا مع الفئات الأكثر بؤسا، لذلك سلك نهجا جديدا لفهم التنمية الاقتصادية ووضع إيديولوجيات جديدة للتطور.

في هذا الإطار، ختم Schultz كتابه بثلاثة انتقادات وجهها للمساعدات الدولية من أجل التنمية وللدول السائرة في طريق النمو، وتتلخص هذه المؤاخذات في كون الاستثمارات في الرأسمال البشري شحيحة، وفي خضوع المساعدات الموجهة للتنمية للضغوط والمساومات السياسية وفي تدخل الحكومات في آليات السوق

7- إرنست فريدريش شوماخير:

يؤكد E.F.Schumacher في كتابه Small is Beautifull على أن التربية تعتبر من أولى الموارد لدى الإنسان. ويوظف تشبيها مجازيا ليعبر عن "المخزون" التربوي المعرفي الذي يتم

استثماره في كل مشروع صناعي. وبالتالي، يقارنه بذلك الجزء الخفي من قطعة الثلج العائمة. ووفق تحليله، تشكل مصفاة النفط مثلا، بكل تعقدها وضخامتها، الجزء الصغير البادي من قطعة الثلج تلك، وما كانت لتكون في الواقع بمعزل عن الكميات الكبيرة والخفية من المعارف المستثمرة في الإنسان. هذا عامل رئيسي في بلورة المعجزتين الاقتصاديتين الألمانية واليابانية. لقد خرب الحلفاء في هذين البلدين خلال الحرب العالمية الثانية كل البنى التحتية التي كانت بمثابة الجزء الظاهر من قطعة الثلج لكن بفضل الجزء الخفي المتمثل في المعرفة، تمكن الألمان واليابانيون من إعادة بناء مركبات صناعية جديدة ومتطورة.

يرى Schumacher أن نشوء الحضارة يبقى لغزا محيرا، لكن تحافظ هذه الأخيرة على استمرارها بفضل التربية، و تضمحل بالقطيعة معها. في الفقرة السادسة من كتابه المذكور آنفا يقول الكاتب:" تعتبر التربية أكثر الموارد حيوية على الإطلاق".

يعزو Schumacher الأزمات المتلاحقة للحضارة الغربية إلى الثغرات التي تعتري نظامها التربوي. ويشاطر اللورد Charles Snow رأيه حين يقول:"إن القول بأن علينا أن نتعلم أو نموت أمر ينطوي على بعض المبالغة، ولكن القول بأن علينا التعلم أو الاندثار يقترب كثيرا من الواقع".

ينتقد Schumacher أيضا مضامين التربية التي يفترض، على حد قوله أن تقودنا "خارج ظلمات جهلنا إلى نور الفهم والإدراك"، ثم يتساءل: "ولكن ما الذي تقدمه لنا التربية اليوم؟ رؤية تشاؤمية عن العالم تشبه أرضا قاحلة بلا دلالة ولا هدف (...) حيث يقف المرء في النهاية على واقعين: الاضطراب النفسي وفقدان الأمل".

فيما يتصل بمشاكل التنمية التي تهمنا بالأساس يقول Schumacher:"ليست الأسباب الرئيسية لتفشي الفقر مادية، و لكنها ترجع إلى ثغرات في التربية والتنظيم والنظام (...) بدون هذه العوامل الثلاثة، تظل كل الموارد باطنة وغير مستعملة (...) هنا تكمن المشكلة المركزية للتنمية(...).

هذا هو السبب الذي يمنع التنمية من أن تصبح فعلا خلاقا، لذا فهي تحتاج إلى سلسلة من التطورات. والتربية لا تتطور بقفزات، ولكن عبر مسيرة متدرجة وبالغة الدقة. والتنظيم أيضا لا يتقدم بقفزات، بل يجب أن يتطور تدريجيا إلى أن يتحقق النظام".

يتميز تحليل Schumacher برصانته ووضوحه على الرغم من أن العوامل الثلاثة المذكورة يمكن اختزالها مجتمعة في عامل التربية، لأن العاملين الآخرين (التنظيم والنظام) يرتبطان جوهريا بالنظام التربوي. ولكن باستثناء المجتمعات التي تجتاز المرحلة العالمثالثية والتي لا تزال تعيش نوعا من الفوضى تعرف المجتمعات الأخرى تنظيما ونظاما محكمين ورثتهما عن طريق التربية.

إذا كان Schumacher يرى أن التربية لا تتطور "بقفزات" كبيرة، فإننا نعتقد أن اليابان، في العهد الميجي، لم يكن لديها الصبر على معالجة الأمور بشكل تدريجي، ولكنها أعدت عدتها و شنت حربا ضروسا على الجهل والأمية. إن مشكلة العالم الثالث تتمثل في أن هذا الأخير يعيش في عالم صناعي "يجهله"، لكن يمكنه فك ألغازه بالتركيز على التربية التي ستمكنه من نقل معارفه ومداركه للأجيال اللاحقة.

يشير Schumacher إلى أن الازدواجية الاقتصادية التي تميز أغلبية دول العالم الثالث، تستفيد منها فقط نسبة 15 بالمائة من السكان العاملين في القطاع العصري في المدن الكبيرة، بينما تعيش 85 بالمائة، من قاطني المدن الصغيرة والأرياف حالة تهميش لا تطاق. ويتساءل Schumacher:"وماذا عن مصير هؤلاء الناس؟ إن التأكيد على أن القطاع العصري في المدن الكبيرة سوف يتطور حتى يتمكن من استيعاب جميع السكان –الشيء الذي حدث بالطبع في العديد من الدول المتقدمة–أمر يفتقر إلى السداد والواقعية". لكن لماذا إذا كنا نعلم أن هذه الدول التي أصبحت متقدمة جدا قد اجتازت المرحلة «العالمثالثية»، التي تعتبر الازدواجية الاقتصادية من أهم مميزاتها؟

يتابع Schumacher تحليله مستفسرا:"هل هناك من حل؟ لا يخامرنا أدنى شك في أن الدول السائرة في طريق النمو لا تستطيع الاستغناء عن القطاع العصري، خاصة فيما يتعلق بصلاتها بالدول الغنية. لكن بالمقابل، يجب إعادة النظر في الفرضية التي تزعم بأن القطاع العصري يمكنه أن يمتد بسرعة إلى أن يستوعب تقريبا كافة السكان. منذ عشرين عاما وفلسفة التنمية السائدة تلقننا أن ما يعود على الأغنياء بالنفع يمكن أن يستفيد منه الفقراء كذلك".

قد يستغرب القارئ من مفكر كبير مثل Schumacher، هذه الفكرة الساذجة التي تضع كلا من الأغنياء والفقراء في كفة واحدة. إذا قارنا إنجلترا – موطن Schumacher– بالهند (إحدى مستعمراتها القديمة) فسنجد أن العديد من العمال وصغار الفلاحين الإنجليز يعتبرون أشد فقرا من

الكثير من العلماء وأرباب المصانع وكبار التجار الهنود، ومن هنا نطرح التساؤل: ما هو الحد الفاصل بين الفقراء والأغنياء؟

علاوة على ذلك، نجد في الأرياف الإنجليزية الآلاف من المواطنين الذين يشبهون الهنود من حيث معتقداتهم الدينية وأسلوب تفكيرهم الخرافي، وإيمانهم بالتطير والشعوذة. كما نجد في المدن الهندية الكبرى العديد من الهنود الذين يشبهون البريطانيين من حيث إيمانهم بالعلم الحديث وتشبثهم بنمط الحياة العصرية. و عليه، فالازدواجية ظاهرة كونية، لكنها تتخذ في دول الجنوب طابعا حادا كما أشرنا إلى ذلك في الفقرات السابقة.

أما فيما يخص القطاع العصري، فلا أحد يجادل في كونه مسلسل حتمي لا مناص منه، لأن الانتشار السريع للطب الحديث (حملات التلقيح، المضادات الحيوية...) أحدث في جميع المناطق الريفية اختلالا في التوازن السكاني. وأدى هذا الاختلال بدوره إلى تفكيك أشكال المجتمعات الريفية التي وجدت نفسها مجبرة على قبول الوضع القائم، والاندماج في القطاع العصري إما عن طريق التصنيع كما يرى البعض أو عن طريق استراتيجيات مغايرة على حد قول منظرين آخرين. ومع ذلك تظل التربية في اعتقادنا الطريق الملوكية لتحقيق ذلك المسعى.

في الفقرة التي تحمل عنوان **مليونا قرية**، يلخص Schumacher ما يسميه **المساعدات الذكية من أجل التنمية** ويقول:" إن المساعدة الفكرية هي أفضل مساعدة يمكن أن نقدمها للآخرين. إن الهدية المعرفية أفضل بكثير من الهدايا المتمثلة في السلع المادية". بعد ذلك يتساءل الكاتب عن نوعية المعرفة، التي يمكن أن نهديها للدول السائرة في طريق النمو لأن "ما يجده الأغنياء ملائما قد لا يكون كذلك بالنسبة للفقراء، لذا يجب إهداء هؤلاء معرفة وسيطة تنسجم وظروف بلدانهم.

يندرج موقف Schumacher في سياق الإيديولوجيا التي تؤمن بها "المدرسة البدائلية". من جهتنا، نعتقد أن المعرفة كل لا يتجزأ ولا وجود لعلم يحتكره الأغنياء دون الفقراء والعكس صحيح.

إذا كنا نعتقد أن *Schumacher* ينظر إلى المعرفة نظرة تمييزية تفرق بين الفقراء والأغنياء، فإننا نكون قد بخسنا المفكر الكبير حقه، إذ لا يجيب أن يغيب عنا انتسابه للنزعة الإنسانية وتعاطفه الشديد مع شعوب العالم الثالث واعتزازه بفكر الزعيم الهندي غاندي. إن موقف *Schumacher* يمليه الهاجس البيئي الذي يدفعه إلى التساؤل بنبرة منفعلة : « لماذا ننفق الأموال الطائلة لإنشاء مفاعلات نووية خطيرة بدل بناء أفران تعمل بالغاز البيولوجي ؟ ».

يبدو أن المفكر الإنجليزي يجهل الكثير عن التفكك البنيوي للمجتمع التقليدي بالشكل الذي عرفته إنجلترا خلال القرن التاسع عشر، ويغفل دور التربية في معالجة ذلك. عندما تتوفر الشعوب على نظام تربوي راق يكون حينئذ باستطاعتها اختيار نوع المعرفة والتكنولوجيا التي ترغب بها. والمهم هو التعجيل بإرساء نظام تربوي يساعد الدول على تثبيت ساكنتها وتطوير بناها الاقتصادية والسياسية وتقرير مصائرها. يفسر Schumacher حاجة الإنسان للمعرفة وتعطشه الغريزي للتعلم ببراعة نادرة و يقول :"عندما يطالب الناس بالتربية فهم يرمزون بذلك عادة إلى شيء يتجاوز المعرفة السطحية للأحداث. قد يكونون هم أنفسهم عاجزين عن تحديد ما يرمون إليه بدقة، لكن اعتقد جازما أنهم يبحثون عن أفكار تجعل العالم من حولهم مفهوما، وحياتهم أكثر وضوحا. إن فهم الأشياء يعطينا شعورا بالمشاركة، في حين يؤدي غياب الفهم إلى الاستلاب (...) إذا كان العقل غير قادر على توظيف الأفكار للتعامل مع العالم، فإن هذا الأخير (أي العالم) سيتجلى واقعا فوضويا ومبعثرا تتجرد فيه الظواهر من كل دلالاتها. إن كل من يجد نفسه في مثل تلك الحالة يشبه شخصا تائها في جزيرة غريبة، ليس فيها أثر للحضارة، ولا توجد فيها خرائط ولا إشارات المرور، حينئذ يفقد كل شيء معناه، ومن ثم يفتقد ذلك الضال وسائل الفهم فينكفئ على نفسه".

وخلاصة القول، يبقى تشخيص الداء "**العالمثالثي**" أمرا مستعصيا سواء في الشمال أو الجنوب.

آفاق مستقبلية

تتهيأ العديد من المنظمات لمضاعفة الإنتاج الفلاحي العالمي خلال العقود المقبلة، من أجل مواجهة التضاعف المرتقب للسكان. يبدو هذا الأمر ضربا من الجنون إذا نظرنا إلى النتائج

البيئية الخطيرة المترتبة عن ذلك. وإذا كنا مجبرين على الرفع من الإنتاج الفلاحي عند كل تضاعف سكاني، فمتى سنتوقف؟

حسب تقرير للأمم المتحدة تضاعف سكان مدن الصفيح عبر العالم بحوالي 36 بالمائة، 43 بالمائة في بلدان الجنوب و 6 بالمائة في بلدان الشمال. كيف يمكن إذن توفير السكن اللائق للملايير من البشر ؟

إن تحرير جزء كبير من البشرية، ودفعه خارج المرحلة "العالمثالثية"، وإعداد برامج طموحة للتمدرس والحد من النمو السكاني يعتبر مهمة تاريخية يجب إنجازها على الصعيد السياسي في المقام الأول قصد إزالة أنظمة فاسدة ومتهاونة. ولا يمكن لهذه الأهداف أن تترجم على أرض الواقع إلا بتدخل الجهاز المسؤول والمتمثل في منظمة الأمم المتحدة، التي يجب أن تقوم بما يلي:

-مراجعة مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها.

-استعمال حق التدخل في الشؤون الداخلية لكل البلدان.

-تنصيب سفراء حقيقيين في جميع البلدان.

-إقصاء الأنظمة الفاسدة التي تسيء إلى شعوبها مع استعمال القوة إذا اقتضى الأمر.

-إنجاز برنامج عالمي متكامل يهتم بالتربية والتخطيط العائلي ويفرض قسرا عند الاقتضاء.

في هذا الزمن الغريب، الذي تدخل فيه السوق العالمية المفككة مرحلة عصيبة يتعين على العالم المتحضر أن يوفر للمنظمة الدولية الوسائل والإمكانيات الضرورية حتى يتسنى لهذه الأخيرة الاضطلاع بمسؤولياتها التاريخية وإنجاز الأهداف الموكلة إليها بغية إعداد العنصر البشري لغد مطمئن وآمن.

على المنظمة الدولية أن تغيير الكثير من ملامحها وتعيد النظر في بناها وهياكلها حتى لا يبقى تقرير مصائر الدول حكرا على أقلية ترعى بمواقفها المتضاربة مصالحها الضيقة

أنشئت هيئة الأمم المتحدة بموجب المؤتمر الدولي المنعقد بسان فرانسيسكو ما بين 25 أبريل / نيسان و 26 يونيو / حزيران عام 1945. وانبثقت المنظمة عن عصبة الأمم التي أنشئت بدورها في مؤتمر السلام المنعقد في 28 أبريل/نيسان سنة 1919.

في مجال التطور الاقتصادي والاجتماعي تغطي المنظمة تحت شعار "التعاون الاقتصادي والاجتماعي الدولي"، العديد من الأنشطة على صعيد حقوق الإنسان والتنمية. تقول الفقرة 55 في هذا الموضوع:"الرفع من مستويات العيش والتقدم والتنمية في المجالين الاقتصادي والاجتماعي وتوفير الشغل لكافة المواطنين". إذا كان مضمون هذه الفقرة يبدو غير واضح، فإنه على الأقل يترجم النيات الحسنة للمنظمة التي تسعى إلى رفع مستوى التربية.

يرى Charles Chaumont، في كتابه **منظمة الأمم المتحدة** أن سياسة المنظمة في التنمية لا تزال في بدايتها. وتفتقر النصوص في هذا المجال إلى الواقعية والانسجام، وأما مشاريع التنمية فتبقى قاصرة على تحقيق النتائج المنتظرة. إن الأمم المتحدة –شانها شأن الهيئات والمنظمات التنموية الأخرى– تعوزها الإستراتيجية التنموية الفعالة. ولا تتردد المنظمة الدولية في اتخاذ إجراءات مؤلمة ضد بعض الشعوب التي تفرض عليها حصارا خانقا، لا يمس في شيء الحكومات الفاسدة بل الشعوب البريئة. لكن حين يتعلق الأمر بالمساعدة على التنمية تبدي المنظمة تهاونا لا يحتمل.

و مع ذلك، ومنذ بداية الخمسينات صادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على مجموعة قرارات تهم تشجيع "**التنمية الاقتصادية المندمجة**" في بلدان العالم الثالث. لكن هذه القرارات ما لبثت أن تحولت إلى مواجهات، استطاعت دول الجنوب في بداية الستينيات، فرض فكرة "النظام الاقتصادي الدولي الجديد"، لكن هذا النظام لم يؤت أكله بسبب سنوات الأزمة التي أعقبت ذلك. و بالتالي عجزت هذه الدول عن متابعة الحوار والمفاوضات نظرا لعدم استقرارها السياسي، الذي كشف للعالم أنظمة فاسدة تخدم مصالحها الضيقة وترغب عن تنمية أوطانها. ومع صدمة النفط لعالم 1973، تراجع الاقتصاد، ودخل الحوار بين الشمال والجنوب عهدا جديدا، لكن دون أن يتوقف.

وفي عام 1976 بنيروبي تبنى المجتمعون برنامجا مندمجا يهم المنتجات الأساسية ووقع تفعيله في جو من التفاهم و التصالح.

وعلى الرغم من ذلك، لم تتطور استراتيجيات التنمية إلا بقدر زهيد، حيث لم يحمل إعلان الجمعية العامة في عقده الثالث جديدا بل بقي كما في السابق يفتقر إلى الانسجام والواقعية. وهكذا بدل معدل 6 بالمائة للنمو السنوي المرتقب فيما يخص الناتج القومي الخام لدول العالم الثالث حسب القرار الأممي 2626 (XXV)، رفعت الإستراتيجية الجديدة النسبة إلى 7 بالمائة، والتصنيع

والتغذية والفلاحة. إن الاستراتيجيات الأممية في التنمية مستلهمة أساسا من المدرسة الليبرالية التي يعتبر W.W.Rostow من أكبر ممثليها بأطروحته المعروفة "**بنظرية المراحل الخمس**". أما T.W.Schultz، فعلى الرغم من فوزه بجائزة نوبل لم يحظ بعد بالشرف الذي حظي به زميله Rostow.

يرى Schultz أن القروض الضرورية لتمويل المساعدات التقنية للأمم المتحدة، يجب أن تستثمر مناصفة في الرأسمالين المادي والبشري.

ويكتب في مؤلفه **لا ثروة إلا بالعنصر البشري** أن "السياسة المتبعة حاليا من قبل ممولي المساعدات الدولية، تسعى إلى خفض الفوارق في المداخيل والثروات (...) أعتقد شخصيا أنه إذا حولنا نصف الرساميل الموجهة إلى رفع مخزون الرأسمال المادي لفائدة تحسين مواهب الفلاحين ومهاراتهم، فإننا سنرفع بشكل ملموس معدل النمو الفلاحي على مدى عقد أو عقدين (...)".

بالإضافة إلى إستراتيجيات التنمية، يتسم القانون الدولي المصادق عليه من لدن الأمم المتحدة، بتوجهه الليبرالي، وهذا شأن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي تبنته الجمعية العامة في العاشر من دجنبر عام 1948.

وتتراوح هذه الحقوق بين حق الإنسان في الحياة، والحرية والأمن والمساواة أمام القانون ونبذ العبودية والمعاملات اللاإنسانية، ومنع الاعتقالات التعسفية والنفي، وكذا حق الفرد في التنقل وطلب اللجوء السياسي، وحق الجنسية والملكية وحرية الاعتقاد والتدين، وحرية التجمع وتكوين جمعيات، وحرية الزواج والحرية السياسية. ولكم يستغرب المواطن في العالم الثالث عندما يعلم أن له الحق في كل ذلك، وهو الذي لا يملك حتى حق الحلم به.

على الرغم من المجهودات التي تقوم بها منظمة الأمم المتحدة وأهمية هذه الأخيرة في تسيير العالم ينظر البعض إلى المستقبل نظرة سوداوية تشاؤمية. ولكن مع ذلك علينا التفاؤل على الرغم من المراحل العصبية التي مرت بها الإنسانية بما في ذلك المجاعة والهجرة والحروب المدمرة.

و تعتبر الحرب اليوم بأسلحتها النووية والبيولوجية والجرثومية مغامرة عبثية وتافهة في خضم أفق لا غالب فيه ولا مغلوب.

في الوقت الراهن تجد البشرية نفسها و على الرغم من تقدمها الباهر في كل الميادين في مفترق الطرق، إما أن تتضامن وتتحد وإما أن تحتضر فتموت.

لم يشهد العالم قط قبل اليوم كل مثل هذا التهافت وراء نزع التسلح ولا مثل هذه الثورة التواصلية والعولمية. لقد انتقل الإنسان بتسامي وعيه من الفكر العشائري الضيق إلى رحابة الفكر الكوني.

إن الأزمات والكوارث التي يشهدها العالم في نهاية هذا القرن العصيب ليست، في اعتقادنا سوى تعبير عن مخاض للشروط الموضوعية (المادية والنفسية) والتي ستسفر عن ميلاد عالم جديد أكثر إنسانية.

ونعتقد جازمين أن القرون الأخيرة من الحضارة الصناعية ليست سوى بدايات عسيرة لعهد سوف تبرق أنواره من كل الجهات.

ولا يمكن بلوغ تلك الآفاق الفسيحة إلا عبر مسلكين انتقاليين و متناقضين:

يتمثل المسلك الأول في إرساء تضامن متين بين كل الناس، تضامن تذوب فيه الخلافات لفائدة منافسة اقتصادية دولية.

رأينا في الفقرة السابقة، وباقتضاب بنية الأمم المتحدة واستراتيجياتها التنموية التي تتمحور حول النمو الاقتصادي وحقوق الإنسان. إن هذه الأهداف النبيلة والتي نؤمن بها، قد لا تجد طريقها إلى التطبيق إذا لم تقم المنظمة والمجموعة الدولية والمنظمات التنموية و الممولين للمساعدات بمجهودات جبارة للدفع بشعوب العالم الثالث، سواء في الشمال أو الجنوب إلى المرحلة الصناعية وإلى عصر المعلوميات عن طريق التربية والقوانين الصارمة.

وأما المسلك الثاني للوصول إلى التضامن الكوني، فيختلف قليلا عن الأول.وإذا كانت الشروط الموضوعية متوفرة لإقامة هذا التضامن فإننا نخشى أن يتحول ذلك إلى نازية كونية كما يرى بعض المتطرفين اليمينيين الذين يختزلون تلك الشروط في تقارب محتمل في الرؤى بين دول الشمال التي أصبحت تملك أعتا قوة عسكرية في التاريخ. فبينا يتباهى الشمال بحلفه الذي لا يقهر وتماسك مكوناته تنغمس شعوب الجنوب في الفقر يوما بعد يوم وتتسرب جحافل بشرية أضنت الفاقة إلى المدن الغربية حاملة معها ملامح التخلف والرجعية، إنها موجات الهجرة السرية التي صارت تحرج الحكومات في العالم الثالث، وتقلق المنظمات الحقوقية وتشكل خطرا ليس فقط على البلدان المضيفة بل على البشرية جمعاء، فحين تنتشر أوكار الجريمة المنظمة و تكثر الهجمات الانتحارية وتتعدد بؤر الإرهاب الذي يغذيه التعصب الديني و السياسي فإن الجميع في الشمال أو

في الجنوب سوف يكتوي بنيرانها ويصطلي بلهيبها. ومهما حصنت دول الشمال حدودها وطورت أنظمتها الأمنية ستكون دوما عرضة لخطر الإرهابيين الذين يعيشون فوق أراضيها والذين قد يتحولون تحت وطأة الفقر والتهميش والعنصرية إلى غيلان مدمرة تزرع الذعر في النفوس وتنشر الاضطراب في كل مكان.

لقد سئمت شعوب الأرض الفوضى وعافت الاضطرابات وهي الآن تتطلع إلى ساسة أقوياء قادرين على تحقيق الاستقرار و النظام، ساسة جبابرة لا يتوانون في ممارسة شتى أنواع القهر والعنف لمنع خصومهم من تنفيذ مخططاتهم الإجرامية. إنها حقا ملامح كئيبة **لشبح العالم الأول**.

خاتمة

تشكل موجات الهجرة السرية والهجمات الإرهابية المدمرة الملامح العامة للأشباح المرعبة الذي تقض مضجع الإنسان الغربي بل الإنسان في كل بقاع الأرض، و تنضاف الحروب الأهلية التي تملأ صورها البائسة صفحات المجلات الغربية إلى الخصائص المميزة للشبح « العالمثالثي » الذي يتجلى أساسا في الفقر المدقع وخطر الشبكات الإرهابية و الاندفاع الغريب نحو القارة العجوز بحثا عن آفاق الشغل و الاغتناء.

من جهة أخرى يعتبر الانفجار الديمغرافي من أهم السمات المكونة للداء «العالمثالثي» وترجع أسبابه الحقيقية إلى تكثيف حملات التلقيح والعزوف عن برامج التخطيط العائلي وإهمال دور النظام التربوي. وإذا كان الغرب خلال القرن التاسع عشر قد شهد انفجارا سكانيا مهولا فإنه كان سباقا إلى الاكتواء بناره شأنه شأن العالم الثالث اليوم. إذا كانت الدول الغربية لم تستطع فهم الاضطرابات التي أصابتها في القرن التاسع عشر، فإنها اليوم عاجزة عن استيعاب الأزمات التي تعصف بدول الجنوب. لهذا تتمادى الدول الصناعية في الوقت الراهن في تعميق مفارقة عجيبة تكمن في الحد من وفيات الأطفال من جهة عبر تكثيف حملات التلقيح و في إغفال دور التربية والتخطيط العائلي من جهة أخرى. يراهن صناع القرار في دول العالم الثالث على بعض الإجراءات الطبية غير المكلفة ماديا للقضاء الفقر المتفاقم في بلدانهم إنه رهان خاسر.

ما كانت أفريقيا و لا أسيا و لا أمريكا اللاتينية لتعرف التلقيح ولا الانفجار الديمغرافي لو لم تستعمر تباعا من قبل الدول الأوربية. و لو بقي سكان تلك القارات أقل عددا كما كانوا خلال القرن التاسع عشر لما وجدوا اليوم أنفسهم تحت رحمة المساعدات الغذائية للدول الصناعية التي لا تجود إلا بمقدار ما تأخذ.

من هنا يتساءل القسم الأول من بحثنا عن خطة العمل التي يطرحها المجتمع الدولي إن توفرت لديه الإرادة السياسية الحقيقية لإخراج العالم الثالث من الطرق المسدود على حد تعبير بول بايروش. لقد حاولنا الإجابة بإسهاب على السؤال في الفقرات السابقة ويمكن اختزال طرحنا في نقطتين اثنتين: تتمثل الأولى في وضع خطة محكمة شاملة للتمدرس على الصعيد العالمي، أما النقطة الثانية فتكمن في تفعيل برامج التخطي العائلي لإيقاف التكاثر السكاني المهول.

و لتحقيق هاذين المسعيين يجب إعادة النظر في بنى منظمة الأمم المتحدة ومراجعة أهدافها وضخ دم جديد في شرايينها حتى تستعيد عافيتها وتسترجع مصداقيتها، أو خلق منظمة عالمية بديلة ذات توجهات بيئية تستطيع بحكمتها و حنكتها تطويق الأزمات المتلاحقة و فض النزاعات المختلفة

التي ما فتئت تزهق الآلاف من الأرواح البريئة. و سيكون على المنظمة الجديدة «منظمة الشعوب المتحدة » دعم الأحزاب البيئية في مختلف الأقطار ومساندة حكوماتها الوطنية لإخراج شعوبها المقهورة من ويلات التخلف. وسيكون أيضا على ساسة الدول النامية إنشاء وكالتين ضخمتين تتمتعان بكفاءة عالية وتسيير محكم تضطلعان بمهمتي التمدرس و التخطيط العائلي.

سنكون أكثر سعادة و استقرارا عندما نستطيع القضاء على الفقر في دول الجنوب، لكن لا يجب أن يستعاض عن الفقر بأسلوب عيش صاخب أبان عن فشله في منح السعادة للمواطن الغربي. إن الانسجام مع الذات هو كل ما ينشده الإنسان في مثل هذا العصر المليء بالتناقضات . لقد كانت الحضارة الصناعية بحق حضارة راقية وغنية لكن قوتها المدمرة عجلت بأفول قيم الإنسان وبزوغ ظواهر اجتماعيـة مشينة. سوف نتطرق في القسم الثاني الذي يحمـل عنوان « **شبح العالم الصناعي** » للملامح السلبية والإيجابية لهذه الحضارة التي لن نتمكن من تجاوز مساوئها إلا بزعزعة نمط العيش في دول الشمال و قلبه رأسا على عقب. يلخص هذا الطرح الأخير مضمون القسم الثالث من دراستنا والذي اخترنا له عنوان **«شبح المد البيئي»**.

ملحق

يجد القارئ في هذا الملحق حوالي ثلاثين حالة لدول من الشمال و الجنوب مرتبة ترتيبا أبجديا. نهدف من وراء هذه العملية إبراز الميول الكبرى لتحليلنا.

جـدول المعـالــم

نـسبـة الـتمـدرس			
ضعيفة	**متوسطة**	**مرتفعة**	**مرتفعة جدا**
ناقص 40 بالمائة	40 إلى65 بالمائة	65 إلى 85 بالمائة	85 إلى 100بالمائة

مؤمـل الحيـاة عند الـولادة			
ضعيف	**متوسط**	**مرتفع**	**مرتفع جدا**
ناقص 58 سنة	من58 إلى62 سنة	من 62 إلى 68 سنة	أكثر من 68 سنة

نسبة الساكنة النشيطة في القطاع الصناعي			
ضعيفة	**متوسطة**	**مرتفعة**	**مرتفعة جدا**
ناقص 10 بالمائة	من 10 إلى 15 بالمائة	من 15 إلى 20 بالمائة	أكثر من 20 بالمائة

نسبة النمو الديمغرافي			
ضعيفة	**متوسطة**	**مرتفعة**	**مرتفعة جدا**
ناقص 1.5 بالمائة	من 1.5 إلى 2.5 بالمائة	من 2.5 إلى 3.5 بالمائة	أكثر من 3.5 بالمائة

تتوفر **ألمانيا الشرقية** سابقا على معدل تمدرس مرتفع جدا يعادل 100 بالمائة. وحسب جدول المعالم المنجز، كانت تتوفر على معدل تصنيع مرتفع جدا بنسبة 40 بالمائة من السكان النشيطين العاملين في الصناعة والمعادن. كما سجلت **ألمانيا الشرقية** سابقا مؤمل حياة مرتفعا جدا يناهز 68,9 سنة في صفوف الرجال، ومعدل نمو سكاني ضعيفا لا يزيد عن ناقص 0,14 بالمائة. ويكمن التباين بين الألمانيتين سابقا في معدلي

نموهما الاقتصادي اللذين يرجعان إلى التفاوت في حجم منافسة اقتصاديهما في السابق. ولكن في ميولهما الكبرى تدخل الدولتان في إطار منطق الجدول المشار إليه.

يعتبر البنك العالمي **المملكة العربية السعودية** من أغنى الدول في العالم. ولكن ثرواتها لا تؤثر كثيرا في مؤمل الحياة عند الولادة والذي لا يتجاوز 59,2 سنة بالنسبة للرجال ولا في معدل التصنيع المتوسط بنسبة 15,3 بالمائة من الساكنة النشيطة، ولا حتى في معدل نموها السكاني المرتفع الذي يعادل 3,5 بالمائة. وكل هذه المعدلات مجتمعة تتوافق، حسب تحليلنا، مع معدل التمدرس المتوسط البالغ 48,8 بالمائة.

حسب معطيات الجدول تتوفر **الأرجنتين** على معدل تمدرس مرتفع جدا يناهز 95 بالمائة و على معدل تصنيع مرتفع يصل إلى 20,4 بالمائة و كدا على مؤمل حياة مرتفع جدا يبلغ 68,6 سنة بالنسبة للرجال، ومعدل نمو سكاني ضعيف لا يزيد على 1,3 بالمائة.

يتوفر **البانغلاديش** الذي يعتبر معدل تمدرسه ضعيفا بنسبة 33,1 بالمائة على معدل تصنيع ضعيف يصل إلى 8,2 بالمائة وعلى مؤمل حياة ضعيف أيضا يساوي 50,1 سنة عند الرجال، ولكن معدل نموه السكاني الذي يفترض أن يكون مرتفعا جدا بنسبة 3,5 بالمائة وما فوق لا يتعدى 2,6 بالمائة. وهذا الأمر له تفسيرين اثنين:

أ- من جهة يجتاز **البانغلاديش** مرحلته العالمثالثية معتمدا على الطب الحديث (حملات التلقيح + استعمال المضادات الحيوية)، الشيء الذي نتج عنه ارتفاع كبير في النمو الديمغرافي. ومن جهة أخرى، تتبنى الدولة شأنها شأن الصين سياسة ديمغرافية لا إنجابية تهدف إلى التخفيف من وطأة النمو السكاني.

ب- لا يزال **البنغلاديش** يعيش مرحلة تقليدية أطلقنا عليها المرحلة ما قبل العالمثالثية وتتسم بضعف استعمال تقنيات الطب العصري الشيء الذي يسبب ارتفاعا في الوفيات (خاصة في صفوف الأطفال) لكنه ينظم على عكس ما قد يعتقد البعض الساكنة بشكل طبيعي يخدم التوازن الاجتماعي.

يبدو أن **البانغلاديش** يعاني من وضعية صحية رديئة لأن وفيات الأطفال فيه تعتبر من أعلى النسب في العالم (9,8 بالمائة سنة 1989 مقابل 3,8 بالمائة في الصين). ويتوفر هذا البلد على طبيب واحد لكل 6166 نسمة بينما تتوفر الصين على طبيب واحد لكل 737 نسمة.

إن البلدان التي لم تدخل بعد و بشكل جدي في المرحلة العالمثالثية، سوف تستفيق لا محالة على هول ارتفاع نموها السكاني. ولكن بعضها يمكنه أن يكون عرضة للانعكاسات المضاعفة للتغطية الطبية الهزيلة والسياسة اللا

إنجابية.

استنادا إلى تحليلنا، تتوفر **بوليفيا** التي يعتبر معدل تمدرسها متوسطا بنسبة 63,8 بالمائة على معدل نمو طبيعي مرتفع يضاهي 2,8 بالمائة، وعلى معدل تصنيع شبه متوسط يناهز 9,7 بالمائة، لكن مؤمل الحياة عند الولادة يعد ضعيفا جدا بنسبة 48,6 سنة في صفوف الرجال و 53,0 بالنسبة للنساء. أما وفيات الأطفال و معدل الوفيات فيعرفان ارتفاعا مهولا يقدر على التوالي بحوالي 11,2 و 1,5 بالمائة. وهذه الأرقام التي تتناسب والمستوى التربوي **لبوليفيا** تبعث على القلق وتفوق بكثير تلك التي سجلت بالبانغلاديش، على الرغم من البنى الطبية الجيدة التي تتوفر عليها الدولة الأمريكية. وفي هذا القطر يعالج طبيب واحد أزيد من 1555 نسمة ويتوفر سرير واحد لنحو 567 مريضا (أي أربعة أضعاف الأطباء وستة أضعاف الأسرة المتوفرة في البانغلاديش). ويمكن إرجاع ذلك إلى احتمال وجود أخطاء في معطيات **أرقام عالمية** التي أشرنا إليها آنفا، لأنه يفترض حسب جدول المعالم أن يكون مؤمل الحياة في **بوليفيا** 58 سنة في صفوف الرجال.

تتشابه حالتا **الكمبودج** والبانغلاديش من حيث معدل التمدرس الضعيف بهما والذي لا يتجاوز 42,0 بالمائة. استنادا إلى جدولنا، يتوفر **الكمبودج** على معدل تصنيع ضعيف يعادل 6,7 بالمائة ومؤمل حياة ضعيف أيضا يساوي 45,3 سنة لدى الرجال، ولكنه يتوفر على معدل نمو سكاني متوسط حدد في 1,9 بالمائة سنة 1987، وهي النسبة التي كان يفترض حسب جدولنا أن تكون مرتفعة جدا. ويشكل السكان الريفيون في

الكمبودج نسبة 75 بالمائة من مجموع السكان المحليين الذين يجتازون على الأرجح المرحلة ما قبل العالمثالثية. وتجدر الإشارة إلى أن الساكنة الكمبودية تفتقر إلى التغطية الصحية الكافية مما يسبب ارتفاعا كبيرا للنمو السكاني في المرحلة العالمثالثية. وسجلت الوفيات و وفيات الأطفال على التوالي ارتفاعا قدر بنحو 1,8 و 14 بالمائة سنة 1985. ولا يتوفر **الكمبودج** على الطاقم الطبي الكافي، إذ يعالج طبيب واحد ما لا يقل عن 36.000 نسمة.

يسجل **الشيلي** الذي يبلغ معدل التمدرس فيه نسبة 95,6 بالمائة معدل تصنيع مرتفع يناهز 15,8 بالمائة من السكان النشيطين العاملين في الصناعة والتعدين. ويتوفر على مؤمل حياة مرتفع جدا يصل إلى 68,2 سنة لدى الرجال. أما من الناحية الديمغرافية، فيعتبر معدل النمو السكاني في الشيلي ضعيفا بنسبة 15,2 بالمائة.

في **ميولها** العامة تتوافق هذه المعدلات مع جدولنا، ولكن علينا أن لا نغفل أن تباين معدلات التصنيع في الدول المتقدمة له صلة مباشرة بمستويات التربية، على الرغم من الارتفاع الكبير لمعدلات التمدرس. وهذه الأخيرة ليست في الحقيقة سوى مؤشرات لمستوى التربية، كما أن معالمنا تكتفي فقط بالإشارة إلى التوجهات في هذا الإطار.

تتوفر **إسبانيا** و **ألمانيا الغربية** سابقا اللتان يعد معدل تمدرسهما مرتفعا جدا على معدلي تصنيع متباينين، هما على التوالي 23 و 27 بالمائة، في حين تصل نسبة الساكنة النشيطة العاملة في الفلاحة في إسبانيا إلى 15,5 بالمائة، بينما لا تتعدى هذه النسبة في ألمانيا 4,2 بالمائة. وهذا الأمر راجع في اعتقادنا إلى تباين مستويات التربية في الدولتين: في **إسبانيا** تمثل نسبة السكان الأميين الذين تصل أعمارهم إلى 25 سنة وما فوق 34,5 بالمائة، في حين لا وجود للأمية في **ألمانيا الغربية** سابقا (0 بالمائة). أما نسبة السكان الإسبانيين الذين يتوفرون على تكوين ابتدائي فتصل 34 بالمائة، تقابلها نسبة 100 بالمائة في صفوف الساكنة الألمانية الغربية سابقا. وفيما يخص معدل التمدرس بالثانوي، سجلت في إسبانيا نسبة 12,6 بالمائة في حين وصلت النسبة في الدولة الجرمانية 62 بالمائة(معطيات1985/1980).

استنادا إلى تحليلنا، تتوفر كولومبيا التي يعد معدل تمدرسها مرتفعا بنسبة 69,1 بالمائة على معدل تصنيع شبه مرتفع يبلغ 14,76 بالمائة من الساكنة النشيطة العاملة في الصناعة و المعادن، و 0,20 بالمائة من الناتج الوطني الخام و 28,5 بالمائة في الفلاحة. وتتوفر كولومبيا أيضا على معدل نمو سكاني متوسط يعادل 2,05 بالمائة.

يجب اتخاذ بعض الاحتياطات في التعامل مع الأرقام و التواريخ حسب المصادر المعتمدة حيث تظهر الأرقام متباينة و متضاربة.

على سبيل المثال، استنادا إلى **أرقام عالمية** تسجل **كولومبيا** 2,05 بالمائة كمعدل نمو سكاني بينما تستقر هذه النسبة حسب **أطلس ايكو** في حدود 1.6بالمائة . أما نسبة الساكنة النشيطة العاملة في الفلاحة، فتحددها نشرة **أرقام عالمية** في 28,5 بالمائة في حين تبلغ هذه النسبة 45 بالمائة حسب موسوعة هاشيت.

تتوفر **كوريا الشمالية** استنادا إلى جدولنا على معدل تمدرس مرتفع جدا يصل حسب **أرقام عالمية** إلى 90 بالمائة (هناك دراسات تتحدث عن معدلات أقل لكن يبقى **الميل** "مرتفعا" أو "مرتفعا جدا") ،و على معدل تصنيع مرتفع جدا وميل مرتفع بنسبة 19,7 بالمائة، و على مؤمل حياة مرتفع عند الولادة ومعدل نمو سكاني متوسط يبلغ 2,1 بالمائة عند نهاية1985 .

يعتبر مؤمل الحياة عند الولادة في ساحل العاج ضعيفا بنسبة 52,0 سنة لدى الرجال، ويقدر معدل التصنيع الضعيف بحوالي 10 بالمائة (10,1 بالمائة إذا أضفنا المعادن والبناء والمقاولات العمومية). أما معدل النمو السكاني فهو مرتفع جدا ويصل إلى 4,3 بالمائة.وبناء على معطيات جدولنا، من المفترض أن يسجل معدل التمدرس نسبة ضعيفة (أقل من 40 بالمائة من الساكنة). ولكن تظهر الإحصائيات معدل تمدرس متوسطا يبلغ 57,3 بالمائة (24,7 بالمائة نسبة المتمدرسين و 57,3 بالمائة نسبة المتعلمين).

تتميز **مصر** بمعدل تمدرس متوسط يصل إلى 40,3 بالمائة.وتتوفر استنادا إلى جدول المعالم على معدل تصنيع متوسط يقدر بنحو 15,3 بالمائة، ومؤمل حياة متوسط أيضا يبلغ 58,0 سنة لدى الرجال، وكذا على معدل نمو سكاني مرتفع يناهز 2,65 بالمائة. وعلى الرغم من أن هذه الأرقام تتماشى وتوجهاتها الكبرى داخل جدولنا، فإن معدل التمدرس كان من المفروض أن يكون مرتفعا بالنظر إلى معدلي التصنيع والنمو السكاني.

يتوفر **الأكوادور** طبقا لجدولنا على معدل تمدرس حدد في 69,1 بالمائة،و على معدل تصنيع متوسط يبلغ 11,3 بالمائة، وعلى مؤمل حياة متوسط أيضا يصل إلى 59,8 سنة لدى الرجال، ثم على معدل نمو سكاني مرتفع يساوي 28,7 بالمائة.

تتوافق معدلات **إسبانيا** مع جدول المعالم المنجز آنفا، وعليه يبلغ معدل محو الأمية 92,8 بالمائة، وهي نسبة مرتفعة جدا. وبالتالي يسجل معدل النمو السكاني انخفاضا يبلغ 0,42 بالمائة، في حين يشهد مؤمل الحياة ارتفاعا كبيرا حدد في 71,3 سنة لدى الرجال.

تتوفر **أثيوبيا** التي يعتبر معدل تمدرسها ضعيفا بنسبة 4,8 بالمائة، على معدل تصنيع ضعيف يقدر بنحو 5 بالمائة، وعلى مؤمل حياة ضعيف أيضا لا يتعدى 39,5 سنة. أما معدل النمو السكاني الأثيوبي الذي يفترض أن يكون حسب جدولنا مرتفعا جدا فيسجل نسبة مرتفعة أو بالأحرى شبه متوسطة تبلغ 2,6 بالمائة. هذه الحالة تشبه إلى حد كبير حالة البانغلاديش والكمبودج والموزامبيق الذي سوف ندرس وضعيته فيما بعد. ويمكن تفسير هذه الحالة–شأنها شأن الحالات الأخرى– إما بتدخل الدولة في المسألة السكانية وإما بضعف التغطية الطبية الحديثة إبان المرحلة ما قبل العالمثالثية. وتتوفر **أثيوبيا** على معدل وفيات أطفال مرتفع جدا يصل إلى 15,5 بالمائة وعلى طاقم طبي لا يستجيب لحاجات السكان (طبيب واحد لكل 78740 نسمة).

تتوافق نسب **فرنسا** مع جدول المعالم حيث يعتبر معدل تمدرسها مرتفعا جدا بنحو 100 بالمائة. كما يعد معدل تصنيعها مرتفعا جدا أيضا ويضاهي 25 بالمائة. أما مؤمل

الحياة عند الولادة فيصل إلى 71,6 سنة لدى الرجال، مما يعني نموا اقتصاديا مرتفعا جدا ومعدل نمو سكاني ضعيفا لا يتعدى 0,4 بالمائة.

تتناقض معدلات الأراضي التابعة لفرنسا مع معدلات هذه الأخيرة. على سبيل المثال، في **غويانا الفرنسية** يصل معدل التمدرس إلى 82,5 بالمائة، وهي نسبة مرتفعة تعطي لهذه المستعمرة القديمة، استنادا إلى جدولنا، مؤمل حياة مرتفع يبلغ 63,4 سنة ومعدل نمو سكاني متوسطا يساوي 2,4 بالمائة، ولكن تمنحها معدل تصنيع ضعيفا يصل إلى 4,7 بالمائة، ويمكن تفسير دالك بكثافة النشاط العسكري الذي يوظف تقريبا نصف الساكنة النشيطة في الجزيرة.

تتوفر **الهند** في ميولها الكبرى على معدلات ضعيفة: 40,8 بالمائة كمعدل تمدرس و 10,8 بالمائة كمعدل تصنيع ثم 56,2 سنة كمؤمل حياة في صفوف الرجال. ويظهر أن **الهند** قد دخلت فترة انتقال ديمغرافي حيث أن معدل نموها السكاني لسنة 1987 انحصر بين 1,4 و 1,8 بالمائة، وهي نسبة متوسطة إلى ضعيفة. وهذا الأمر راجع في اعتقادنا إلى سياسة تحديد النسل التي سنتها الدولة وإلى سيادة الساكنة القروية بنسبة 62,5 بالمائة خلال المرحلة ما قبل العالمثالثية.

إذا كانت **كينيا** تتوفر على معدل تمدرس متوسط يبلغ 59,2 بالمائة فإنها تسجل حسب تحليلنا معدل تصنيع متوسط يعادل 13,2 بالمائة ومؤمل حياة ضعيف إلى متوسط يناهز 56,5 سنة في صفوف الرجال، وكذا معدل نمو سكاني مرتفع جدا يساوي 3,6 في المائة، و هذا المعدل الأخير يمكن أن يسم، في اعتقادنا، **الميول** الكبرى لهذا البلد خلال فترة النضج من مرحلته العالمثالثية، وهذا يعني أن معدلات النمو الديمغرافي ستعرف انخفاضا ملحوظا. يجب إذن على **كينيا** وموازاة مع مجهوداتها في ميدان التمدرس أن تتبنى سياسة تخطيط عائلي صارمة.

تتشابه حالتا كينيا و**المغرب** الذي يسجل المعدلات الآتية: 70,7 بالمائة كنسبة تمدرس و 15,5 بالمائة كنسبة تصنيع، و 59,1 سنة كمؤمل حياة عند الولادة، ثم 2,6 بالمائة كنسبة نمو سكاني. وللإشارة فالتواريخ متباينة لكنها مختارة اعتبارا لتقارب بعضها

البعض الشيء الذي يدفعنا كما سبق وأن قلنا إلى الحديث عن **الميول** بالنسبة لجميع الحالات المدروسة.

على خلاف المغرب وكينيا يتوفر **الموزامبيق** الذي يتموقع حسب تحليلنا في المرحلة ما قبل العالمثالثية على معدل تمدرس ضعيف يبلغ 16,6 بالمائة وعلى معدل تصنيع ضعيف أيضا يعادل 6,1 بالمائة، وكذا على مؤمل حياة ضعيف لا يتعدى 42,2 سنة، ولكن يتأرجح معدل النمو السكاني في هذا البلد بين الارتفاع والاستقرار مسجلا 2,54 بالمائة. أما الساكنة فلم تأخذ بعد بأسباب الطب العصري، ويكفي أن نشير إلى أن كل طبيب واحد يعالج ما يزيد عن 50876 نسمة. وتصل نسبة الوفيات إلى 2 بالمائة ووفيات الأطفال إلى 15,3 بالمائة. ولا داعي للاستغراب، لأن نظم التفكير التقليدي لا تزال تهيمن على السكان. وعليه إذا أراد **الموزامبيق** حقا خفض نموه السكاني فما عليه إلا إعطاء الأولوية للتربية. وهذا يدفعنا إلى طرح السؤال المؤلم: **هل يجب التخلي عن التغطية الصحية في انتظار تعليم كافة السكان؟**

يمكن نعت **نيجريا** "بالبرازيل الإفريقي" نظرا لما تتوفر عليه من موارد طبيعية ضخمة، الشيء الذي يعطيها معدل تصنيع مرتفع يصل إلى 18 بالمائة. وعلى العكس، يعتبر معدل تمدرسها ضعيفا إلى متوسط يتناسب حسب جدولنا مع مؤمل حياة ضعيف يبلغ 48,8 سنة، ومع معدل نمو سكاني مرتفع إلى مرتفع جدا يناهز 3,4 بالمائة.

ورغم تشابه البرازيل و**نيجريا** تبقى معدلات هذه الأخيرة مخيفة وكارثية.

يستشعر الخبراء قلقا شديدا حيال إفريقيا التي بقيت قصية عن التلاقح الثقافي الذي شهده حوض البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط واسيا. إذا كانت دول الجنوب الأخرى قد استلهمت من التاريخ بنى تربوية تحاكي البنى الغربية فإن شعوب إفريقيا عاشت ولأمد طويل على هامش الحضارة ولم تستطع مد جسر التواصل مع التربية الحديثة، لكي تتمكن في آخر المطاف من إنشاء بناها التعليمية الجديدة. ستحتاج القارة الإفريقية إذن إلى وقت طويل للخروج من المرحلة العالمثالثية ولن يتسنى لها ذلك إلا بمضاعفة جهودها في مجال التمدرس.

يتوفر **البرتغال** الذي يصل معدل تمدرسه إلى 84,2 بالمائة على معدل تصنيع مرتفع جدا يبلغ 22,8 بالمائة ومؤمل حياة مرتفع جدا أيضا يناهز 70,0 سنة، وكذا على معدل نمو سكاني ضعيف لا يتعدى 0,4 بالمائة.

مقارنة بباقي جيرانه يعتبر **البرتغال** من أفقر البلدان الأوروبية، ويظهر أن مستواه التربوي يعد من أكثر المستويات تدنيا في أوروبا. إذا ما قورن بألمانيا الغربية سابقا من حيث عدد السكان المتوفرين على تكوين جامعي، يسجل البرتغال نسبة 0,1 بالمائة خلال الثمانينات في حين تصل نسبة ألمانيا إلى 56,8 بالمائة.

يصل معدل التمدرس في **رومانيا** إلى 95,8 بالمائة، الشيء الذي يعطيها حسب جدولنا معدل نمو اقتصادي مرتفعا جدا (معدل تصنيع مرتفع جدا يعادل 21,7 بالمائة ومؤمل حياة مرتفع جدا يساوي 67,0 سنة لدى الرجال) ومعدل نمو سكاني ضعيفا لا يتعدى 0,5 بالمائة.

بيبليوغرافيا

AMIN S., L'accumulation à l'échelle mondiale, 2ème éd., Anthropos, Paris, 1988.

AMIN S., L'échange inégal et la loi de la valeur, Anthropos, Economica, Paris, 1988.

AMIN S., Le développement inégal : essai sur les formations sociale du capitalisme périphérique, éd. de Minuit, Paris, 1979.

BAIROCH P., Le Tiers-monde dans l'impasse, Gallimard, Paris, 1992.

BENOIST de A. Europe, Tiers-monde, même combat, coll. Franc parler, éd. R. Laffont, 1986.

BETTELHEIM C., Planification et croissance accélérée, Maspéro, Paris, 1975.

BOUTHOUL G., La surpopulation : l'inflation démographique, Payot, Paris, 1971.

BRUCKNER P., Le sanglot de l'homme blanc : tiers-monde, culpabilité, haine de soi, coll. Points, éd. du Seuil, Paris, 1986.

BURGEL G., Du Tiers-monde aux tiers-mondes, les topos, Dunod, Paris, 2000.

CARFANTAN J-Y. et CONDAMINES C., Qui a peur du Tiers-monde ? Rapports Nord-Sud, les faits, Points politiques, éd. du Seuil, Paris, 1986.

CHANTEBOUT B., Le Tiers-monde, éd. A. Colin, Paris, 1986.

CHAUMONT C. et LAFAY F., L'Organisation des Nations Unies, Que sais-je ? n. 748, P.U.F, Paris, 2000.

CHESNAIS J-C., La démographie, Que sais-je ? N. 2546, P.U.F, 1998.

CLUB De ROME, Halte à la croissance, Fayard, Paris, 1972.

COT J-P., A l'épreuve du pouvoir : le tiers-mondisme, pourquoi faire ?, éd. du Seuil, Paris, 1984.

DEBRAY R., La critique des armes, coll. Combats, éd. du Seuil, Paris, 1974.

DOMMANGET M., Les grands socialistes et l'éducation : de Platon à Lénine, coll. U, éd. A. Colin, Paris, 1970.

DUMONT R., Pour l'Afrique, j'accuse : le journal d'un agronome au Sahel en voie de destruction, Plon, Paris, 1993.

.

الفهرس

الصفحات

مقدمة.....4

تمهيد.....6

الجزء الأول : شبح العالم الثالث.

توطئة.....8

الفقرة الأولى : أصل العالم الثالث.....10

أ- بريطانيا العظمى خلال القرن التاسع عشر:

الصورة القديمة لعالم معاصر.....11

ب- شبح الانفجار السكاني.....20

الفقرة الثانية : رؤى فكرية حول مفهوم العالم الثالث.....28

أ- دراسات التنمية.....29

ب- إستراتيجيات التنمية.....35

الفقرة الثالثة : المستوى التعليمي كمؤشر كوني للتنمية.....40

أ- التربية عبر التاريخ.....44

ب- معدل التمدرس كمؤشر وحيد للتنمية.....48

ج- التربية كما يراها بعض كبار المفكرين.....63

آفاق مستقبلية.....86

خاتمة 91

ملحق.....93

بيبليوغرافيا.....103